ديوان العرب تقدم لكم

ديلارا

رواية

نهاد أحمد

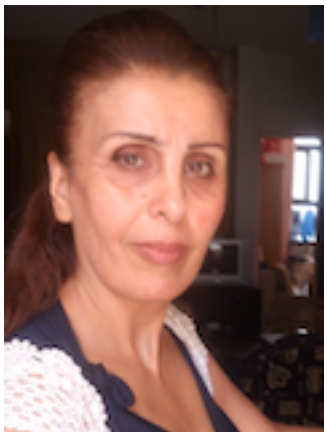

الإهداء :

إلى كل من ألهمني الكتابة .....

وإلى الرائعة ميّار .....

"ديلارا ، و تعني باللغة العربية : نور الشمس أو سارقة القلوب، فإن أردتَ معرفة تلك الشّابّة حق المعرفة، عليك أن تدرك جيداً أن الجمر الذي يقبع تحت الرماد و يغريك دفءُ وهجه أيام البرد القارس، هو الجمر نفسُه الذي ينقلب عليك و يكويك بسعيره إذا ما غامرتْ يداك وعبثت في أحشائه."

هذا ما دونه الكاتب المسرحي قيس عبد الجليل على قصاصة ورق كان قد نسيها في كتاب نصحني بقراءته، ربّما أنساه نقاشُه مع صديقه الشاعر مصطفى غريب- قبل لأن أفاجئهماً بدخولي- أن يقلب صفحات الكتاب ليُخرج هذا الدليل القاطع على حبّه لديلارا، إذ كان يُبدي له قلقَه على المسرح والصعوبات التي تواجهها الفرقة المسرحية في التدريب وتوفير المواد اللازمة للمسرح كالملابس والمكياج، وغيرها من لوازم المسرحية الجديدة. فقد أقسم له أنه دفع ثمن ملابس الممثّلة التي جسّدت دور "كليوباترة" ما يعادل دخله الشهري...هذا بالإضافة إلى مصاريف أخرى لا عدّ لها ولا حصر.

كانت تلك المرةَ الأولى التي لم أشعر فيها بالملل وأن أنتظر على محطة الوقود، إذ رحتُ أقلّب صفحات الكتاب وأنا أتخيّل يدَيْ قيس تلامسها وتعبرها الواحدة تلو الأخرى. وحين وجدت القصاصة وتمعّنت فيها أدركتُ سرَّ الحرارة التي توارت في قلبه مُظهِرةً ذاك اللون الداكن في محيط عينيه، والحزنَ الخفيَّ فيهما. وأدركتُ أيضاً تعلّقي بحكاية تلك الصبيّة ذات الوجه الماطر أسرارا...

كنتُ أرى في ديلارا شغب الصبا الذي تاه منّي شعاعُه المتوهِّج. وأثار هروبها دهشتي وأنا لم أجرؤ يوماً أن أتخطّى رغبة أمّي.

1

شتاءٌ قارس آخر يندحر. ودفء الربيع الوليد يُذيب، مع الجليد العنيد، حاجزَ العزلة والكسل.

في فجر العاشر من نيسان من عام 2002، رنّ جوالي ولمحتُ اسم قيس على الشاشة، فأجبت باستغراب وقلق ناسيةً فارق التوقيت بين البلدين. سألتُه بتوجّسٍ عن أهلي، وما إذا حدث لأحدهم مكروه –لا سمح الله- فصاح بي مُطمْئِناً:

- ما بك رقية؟ ... أهلك بألف خير... كل ما في الأمر هو أني قرّرتُ أن أستمع إلى نصيحتك... وسأسافر إلى عندك ... إلى كندا... مع فرقتي بعد أسبوعين لأقدّم سلسلة عروض لمسرحيتي في مدينة مونتريال.

أطار ذلك الخبرُ مني النعاسَ. تراءت لي سنوات علاقتي معه كومضة خاطفة. تذكّرتُ ذلك الوجهَ الأسمر بلحيته القصيرة، وعينيه الحالمتين أبداً، وذلك الجسم النحيل، فانتابني شعور غريب: هل هو شعور امرأة فرِحةٍ برؤية حبيبها السابق؟ أم هو مرارة انهيار الأمل بسبب لامبالاة هذا الحبيب؟...

أنعشني اتّصاله، وولّد في نفسي ربيعاً ما يزال شذاه يملؤني غبطةً وحبوراً. إن نسمةً عليلةً واحدةً من ربيعه اختزلت الربيع كلّه. لم أكن أعلم أن قيساً قد تجذّر عميقاً في كياني إلى هذا الحد. يا إلهي ما أرهف حسّه، وما أسرع فهمه للإيحاءات والرسائل القصيرة! قيس الذي لم يغب عن مخيّلتي لحظةً واحدة سيحلّ ربيعُه في كندا.

حين عدتُ إلى سماع صياحه، فهمتُ أنه يريد أن أساعده في متابعة الإعلانات عن عرضه.

ها هي تسع سنوات تمرّ وأنا مغتربة. وفي الربيع، يُؤْثِر جلال –كما وعدني قبل زواجنا- أن ينزّهنا، أنا وولدينا محمد وليس، في الضواحي في أيام العُطل الأسبوعية. نتجوّل في غابات القيقب الشاسعة والساحرة. برأيي، لم يخطئ الكنديّون إذ وضعوا ورقة هذه الشجرة الجميلة على علمهم رمزاً لهذه البلاد الجميلة والباردة. في بداية زواجي، اكتفينا بزيارة عائلات من أصول عربية، وأخذنا نتناول الغداء في مطاعم تقدم أطباقاً شرقية. ولكن لم تمضِ إلا أشهر قليلة حتى أخذتُ أنشط في المجال الاجتماعي، وكوَّنتُ صداقات مع عائلات من جنسيات مختلفة، وعشنا مناخاً متعدّد الثقافات، وجدت فيه كثيراً ممن لديهم اهتمام بالمسرح والسينما.

تعرّفت إلى كثيرٍ من السيدات، وصرنا نتبادل الزيارات، ونقوم معاً بجولات طويلة في أسواق مونتريال، ونزور المعارض، ونشارك في النشاطات الثقافية.

لكن حنيني إلى دمشق وأسواقها ظل متربّعاً في قلبي. فبقيتُ على تواصل مع أهلي وصديقاتي الدمشقيات، لجمع مواد ثقافية وفنية لمجلّة "نبض الشرق" الخاصّة المنوّعة التي عملتُ فيها في السنتين اللتين تلتا سفري إلى مونتريال. ولكن في بداية حملي الثالث، الذي أتي بعد إجهاضين، نصحني الطبيب بالإقلال من الحركة قدر الإمكان، على الأقل في الأشهر الثلاثة الأولى،

فاستغللتُ هذه الفترة في التهاتف، تسليةِ النساء المفضّلة.

طار جلال فرحاً عندما زففتُ إليه الخبر السعيد، وبدأ يعدّ الأيام بانتظار محمد القادري الصغير، وهيَّأ لي كلّ أسباب الراحة والاستقرار.

كما كنت أتصل بقيس دورياً لأعرف أخباره الشخصية وآخر نشاطاته الفكرية والمسرحية، من اجل المجلّة، ومن أجلي أنا. وتمنّيتُ عليه أن يأتي بمسرحه إلى هنا ليطرح للعالم قضية شعبٍ مظلوم، ويُريَه فنّ هذا الشعب وتراثه؛ فمهما كثرَتْ حكاياتي لصديقاتي العربيات وغير العربيات عن فلسطين وتراثها ومدنها الأسيرة، يبقى مسرح قيس أكثر تأثيراً من كل ما أقوم.

بعد انتهاء الاتصال، همست: "ها هو يبدأ بتحقيق المزيد من طموحاته التي أهمل حبّي من أجلها".

وضعت جوالي ورحت أنساب في فراشي كموجةِ صيفٍ تعانق رمالاً عطشى.

بعد ساعتين من التقلّب، ظننتُ للحظةٍ أني ضحية حلم مراوغ، فهببتُ من فراشي، وتفحصّتُ الجوال وتأكدتُ من أن الاتصال حدث بالفعل. فقد كنتُ أتحرّق شوقاً لرؤية عرض الفرقة المسرحية، وذلك لمعرفتي بمقدرة قيس، ولأنني، مثله أيضاً، أعشق الفنون الشرقية.

منذ ذلك الحين لم أوفر جهداً في العمل على نشر الإعلانات في الصحف والمجلات العربية. فقد كان مشروع قيس مشروعي الشخصي، ونجاحه نجاحي. لذا كان أول عملٍ قمتُ به هو أني أخبرتُ جلالاً ففرح للخبر، وهو الذي ورث حب الفنون الأصيلة عن والديه، فسارع إلى إرسال مندوب لدعوة معارفه من رجال أعمال وفنانين وكتّاب وشعراء. أما أنا فقد قمتُ وأكثر صديقاتي قدرةً على الكلام بجولات على المعاهد والمدارس والمراكز الثقافية العربية، واتّصلتُ بمعارفي جميعاً.

كنتُ أستعجل الموعد الحلم لكي أفتخر بقيسٍ وبفنه وبشرقنا الساحر أمام أصدقائي. فقيس جزء من ذاكرتي ووجداني ومن ماضيّ الجميل والأليم.

في الصباح الموعود. انطلقنا إلى المطار مع مجموعة من صديقاتي اللاتي أصررن على مشاركتي في استقبال قيس.

وفي الطريق، لستُ أدري كيف نفرت إلى خاطري حكايات جدتي عن فلسطين، ومفتاح باب منزلها الذي احتفظت به حتى وفاتها. كانت تعلّقه على الجدار حين تستحمّ وتقول: "إياكم أن يُضيّع أحدكم المفتاح". وحين تنتهي من الاستحمام، تسرع إلى الجدار، وتمسك بالمفتاح، تنظر إليه وتتفحصه جيدا ثم تعيده إلى جيبها بكثيرٍ من الحب.

كانت تخاطبني وعيناها محدِّقتان، وكأنها تقرأ في ذاكرتها: "آه يا عيون جدتك، كم استيقظت قبل شروق الشمس لأسقي أشجار الليمون التي لا أدري الآن ماذا حصل لها، أخشى أن يكون قد

قتلها العطش، وأن يكون خرطوم الماء قد سُرق. إنه من النوع الجيد الذي لا يتأثر بحرارة الشمس.

يافا أم البرتقال ورائحة الليمون. ما أطيب رائحة ليمونها! وما أجمل لون ترابها وأسيجة بساتينها! قلبي معلّق هناك عند الغراس المروية بمياه آبارنا. وما أتعس ذلك العام! عام النكبة، حين هجم الصهاينة على المدينة وطردونا من ديارنا، كنا نسكن في البلدة القديمة. لا يمكن أن أنسى ذلك اليوم المشؤوم حين جمَعَنا الصهاينة في حي العجمي وأحاطونا بأسلاك شائكة. اقتلعونا من بيوتنا وأوقفونا في ساحة البلدة. يومها توفي جدك قهراً".

وتنهمر دموعها، فيزفر قيس زفرةً حرّاقة وهو يُصغي إليها بانتباه شديد.

حكايات لا تنتهي، وأنا وقيس نستمع إلى سردها المشوِّق حتى باتت فلسطين وطناً يسكن روحينا. فأنا لم أرَ يافا ولا حيفا ولا الناصرة ولا بيت لحم، لكني بتّ أعرف أدقّ تفاصيلها. أحببت تلك المدن، ورسمتُ في خيالي صورةً لبيت لحم بكنيستها المقدّسة ومبانيها وأسوارها العتيقة وقد نَمَت الطحالبُ على جدرانها المبنية بالحجارة السوداء. ثم أتخيل الكنيسة مضاءة بالشموع فأحسّ بالرهبة والخشوع لطهر المكان.

هو قيس يظهر. مرّت عليه السنون، لكنها لم تنل من تصميمه وحيويته. عانقني فأخذت أبكي وأضحك بينما ظلّ محافظاً على ابتسامته وصلابته.

بقيت متشبثة بيديه كمن يتشبّث بماضٍ من ذكريات وأحداث عشناها معاً على طريق المدرسة وفي دارنا ونحن نلعب بين شجيرات الياسمين والورد الجوري. فقد عرف قيسٌ اليتم في سن مبكرة، لذا كانت جدتي تستجيب لرغباته وتطيل فترة الحكاية. وقد أحبّتْه أمي أيضاً لذكائه وفطنته فكانت تدعوه لزيارتنا مع عمته التي تولّت رعايته.

تغلّبتُ على تأثّري، وبدأت أعرّف قيساً بزوجي وصديقاتي، ثم قام هو بتقديم أفراد الفرقة.

منذ نحو سنتين وهو يحدّثني عن فتاة انضمّت إلى الفرقة، ويمتدح مواهبها، ويؤكّد أنها ستتبوأ منزلةً رفيعة في عالم الفن يوماً ما، فعرفتُها مباشرةً.

عرفت ديلارا قبل أن ينطق باسمها، لمعرفتي بمقاييس قيس للجمال. كانت رائعةً بقامتها الفارعة وخصرها النحيل، وجيدها الطويل، وعينيها الآسرتين، ونظرتها الصوفية وكأن الموسيقى تستوطنهما.

أمضيت ذلك النهار في متابعة توزيع الدعوات، والتأكيد على الحضور. وقد بلغ النشاط الإعلاني أوجَهُ قبل العرض بيوم واحد. إنها فرصة قيسٍ لتحقيق حلمه، وهو الذي ربط حياته بالمسرح، فكرّس له جهدَه ووقته، ورمى برغباته وعواطفه بعيداً خارج عالمه.

عند الثامنة مساء كانت الصالة تعجّ بالمشاهدين. لم أستطع إخفاء فرحتي التي شاركتني بها صديقتي المغربية وقالت بفخر:

- لقد أخبرت كل الجالية العربية، ووعدتهم بتفاصيل الجمال الذي ستُظهره المسرحية، وأرجو أن يصدق
وعدي.

على المسرح حضّر الفلكلور الفلسطيني تماماً كما كانت ترويه جدّتي. فتيات جسّدن تراث فلسطين غناءً وفنّاً مسرحياً. غنّين "الميجانا" الفلسطينية، وبعض مواويل الأعراس، ولكن الأغنية التي ألهبت الصالة هي "وين عَ رام الله" وراح كثير من الحضور يغنّون "وين عَرَبَ الله". في البداية ضحكنا من هذا الخطأ اللفظي، ولكن سرعان ما وجدنا أنه خطأ محمود، إذ يبقى هذا السؤال مطروحاً بقوة: أين العرب من فلسطين؟

بعد تلك الوصلة الحماسية، هدأ المسرح وجلس الحضور. ساد صمتٌ ثقيل، ثم صدح صوتُ ناي مبحوح. أتى من بعيد، من السحاب، من الحلم، ثم ظهرت ديلارا مرتديةً الثوب التقليدي الطويل والفضفاض، وأخذت تنثني برشاقةٍ مع اللحن، تتهادى حيناً، وتثور أحياناً، وجسدها يتشرّب الموسيقى ويوزّعها رقصاً، كحباتِ لؤلؤ تتدحرج وتخطف الأبصار لتدرك بالكاد مكان وجودها، فقد انسجمت روحها مع الموسيقى وذابت خلايا جسدها مع حنان الناي الغريب فبدا كعجينة أسرفت قرويةٌ قوية الساعدين بدعكها، فكان من المستحيل الفصل بين الموسيقى وتعبير جسدها.

أنثى ألهبت برقصها قلوب الظامئين للعودة لأرض الأجداد،

ونثرت زهر الليمون عطراً يُلهم القلوبَ شعراً وموسيقى، وحنيناً دافقاً. تُرى من أين أتيت ديلارا بهذا الإبداع كلّه؟!

انحنت برشاقة لجمهور الصالة فدوّى تصفيق حاد أخَّرَ إسدال الستارة أكثر من دقيقتين.

بدأ قلقي حين وجدت أخي الصغير شادي ينتظرني أمام المبنى الذي تشغل عائلتنا إحدى شققه. وقبل أن أنحني لتقبيله ناولني ورقه وأسرع إلى المصعد.

"رقية اذهبي إلى مزينة الشعر ماريا. هي في انتظارك وعودي بعد أن تنهي تسريح شعرك. وقد طلبت إليها أن تكحل عينيك وتضع قليلا من الرتوش على بشرتك.

عائلة القادري في منزلنا".

وقفت لأعيد قراءة الرسالة الصغيرة، بل القرار غير القابل للنقاش الذي أصدرته أمي بعد تفكير دام سنين. قلت في نفسي: يبدو أن أمي وجدت الفرصة الملائمة بعد انتظار طويل لإبعادي خارج دمشق.

مشيت بخطا بطيئة ومترددة وأنا أفكر بموعدي مع قيس لمساعدته في تدريب المشاركين في مسرحيته الجديدة، لكن سيتعذّر علي الخروج عند الرابعة والنصف من بعد الظهر، وهو موعد بدء التدريب.

ها قد وصلت إلى الحدود التي باتت ترسم معالم انفصالي ورحيلي عن عالم عشقي وطموحي ومطاردة أحلامي.

هناك، في مركز التجميل، ملتقى النساء بامتياز، الذي تديره ماريا، صديقة أمي، جلست آنسة تقلّب صفحات إحدى المجلات لتختار تسريحة عرسها وأخرى تقرأ فنجًان صبية في مقتبل العمر. أما ماريا نفسها فكانت تستعجل الفتيات اللواتي يعملن في المركز ويمشين بكثير من الدلال أمام المرايا الصافية، ليُحضرن الأمشاط والمناشف ومجففات الشعر.

حمدت الله لخلوّ جو الصالة من دخان السجائر، فالساعة كانت تشير إلى الحادية عشر، ونؤومات الضحى ما زلن نائمات في خدورهن، فصباحهن لا يبدأ قبل الثانية عشرة، يتباطأن في ارتداء الملابس، وإجراء المكالمات. يتّفقن على اللقاء في الصالونات لشرب القهوة مصحوبة بعددٍ من السجائر، ويتحدثن عن آخر صيحات الموضة وكريمات التجميل وأعشاب تخفيف الوزن وعمليات التجميل كتغيير شكل الأنف والخدود وزراعة الرموش ولا ينسين أن يعرّجن على السليكون والبوتوكس... ثم يبدأن بمقارنة أنفسهن مع الفنانات وعارضات الأزياء وملكات الجمال، ولا ينتهي الحديث قبل تقصّي آخر أخبار الفنانات والفنانين: مسلسلاتهم وزيجاتهم وانفصالاتهم ومهاتراتهم على الفضائيات وعلى صفحات المجلات الفنية.

كثيراً ما رفضتُ مرافقة أمي إلى تلك الأماكن، فهناك ذاكرة موجَعة حملتْها طفلةٌ -هي أنا رقية- عن عالمٍ أصدق ما فيه تبرّجه وثرثراته. كنت أحسّ بالدوار والضجر لكثرة ضجيجهن الموتور، وخوفهن من مرور الزمن، وتشكّل التجاعيد، وترهّل الجلد.... لكن زمن الطفولة انسرب هارباً إلى غير رجعة، وعرفت أذني طريقها إلى ما تهوى وتستطيب.

أعطيت ماريا قرصاً مدمجاً يحتوي على موسيقى الفلوت، وطلبت إليها أن تضعه في قارئ

الأقراص. أزحتُ ذكريات الماضي واستحضرتُ صوراً ولوحات رَسَمَها التأمل الذي يمارسه ذهني طلباً للاستقرار وراحة البال. تخيلتُ بحيرةً زرقاء وقارباً صغيراً على متنه عاشقان، وعلى شاطئها غابات ممتدة فوق السفوح المنحدرة تهمي عليها أمطارٌ ربيعية. ورأيت مهرةً جامحة في البراري مجنونة جنونَ أحلامي وتخيلاتي.

أغمضت عينيّ، واستسلمت للموسيقى، وماريا تغسل شعري، وتدلك فروة رأسي، تاركةً مخيلتي تنسج خيوطَ الأحلام رويداً، فرأيتُ غيوماً سابحات فوق المراعي، وأسراب يمام تطير فوق قاسيون باتجاه دمشق.

حين خرجت من صالون التجميل كان الهواء بارداً قليلا فلملمت شالي حول عنقي، وطارت خصلات شعري الطويل كوشاح حريري أسود خلف ظهري. كنت شاردة الذهن تائهة في عالم المجهول الذي ينتظرني. تنبّهتُ إلى مضيّ الوقت على غفلة مني. كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف، موعد انتهاء دوام جارتنا الصيدلانية مريم التي تربطني بها علاقة طيبة. حين رأتني قادمة نحوها وقفت تقطف أزرار الياسمين المعرّش على سور بجانب مدخل الصيدلية.

قالت وهي تبتسم فتتحوّل عيناها إلى خطين مستقيمين أسودين، وينتفخ خداها مشكّلَين كرتين صغيرتين ورديتين:

- ما شاء الله! تبدين كالقمر! كيف حال الدراسة؟ أتمنى أن تكملي دراستك لتصبحي مدرّسة في كلية الإعلام. أعتقد أن هذا سيُكسِبك الراحةَ بعد الجامعة، وستكون ساعات عملك أقل من ساعات عملي في هذه الصيدلية التي تلزمني بالجلوس ساعات في المكان نفسه.

وراحت تحثّني على الدراسة والتفوق لاسيما أن سنة التخرج تحتاج إلى الكثير من الجهد والصبر. أخيراً فتحت يدها وقالت:

- هذه الأزهار الرقيقة تشبهك.

وضعتها في يدي وأطبقت عليها أصابعي بحنان أغفلته أمي في زحمة وصاياها. قبّلتها واتجهت إلى المصعد. تمنيت أن أرى قيساً ينتظرني في مدخل المبنى ليرى شعري كما يحبه مسترسلاً، وكحل عيني الذي يتغنى به كلما رأى سوادهما اللافت. أوقفني قلبي أمام مرآة المصعد ليمارس لعبته السرية للحظات، فتخيلت قيساً يقف قبالتي، وتحدثني عيناه شعراً، فأبادله لهفتي وحبي لأدبه المتميز.

التخيلاتُ ولّدت حرارة في شفتيّ ووجنتيّ، واجتاحتني موجة شوق لصبحٍ يحملني إلى قيس لأبوح له بحبي لتلك الصباحات التي عوّدتني أن أقرأ ما كتبه في صمت الليل..

كانت يدي تفتش عن المفتاح، بينما عقلي يحاول الولوج إلى الواقع. فخلف باب منزلنا يمارَس الطبخ بمختلف أشكاله وأنواعه ببراعة لا تضاهى.

رائحة الطبخ أزكمت أنفي، وأثار إعجابي ودهشتي منظر الخضار المرتبة بطريقة أنيقة وألوان متعددة . كانت أمي تعدّ الأطباق فلم تنتبه لوجودي. وقفت في باب المطبخ أغني "العيون الكواحل" فالتفتت وقالت بدهشة:

- يا لجمالك الفتان يا ابنتي!!!

ثم أضافت هامسة:

- ليتك تسلبين به قلب جلال وعقله ... ضيوفنا في انتظارك.

وضعت أزهار الياسمين في صحن صغير على طاولة مستديرة في المطبخ. قالت وهي ترفع حاجبيها لتتشكل طيات في جبينها وترسم انفعالاً وغضباً معلناً:

- أليس قيس من قطف لك هذه الأزهار؟ انتبهي رقية .... قيس يغني لكل "العيون الكواحل" التي تلهمه للكتابة. قيس يعشق الأدب والمسرح والشعر، ولن يفكر يوماً في الزواج، وأنتِ تدركين ذلك جيداً. أما جلال فسيغنّي لعينيك أنت دون سواك، هل فهمت رقية؟

بعد أن فرغت من رشقي بكلماتها التي سبّبت آلاماً في معدتي ورأسي. ناولتني كوباً من مزيج الموز والحليب والشوكلاتة والجوز، قالت:

- هذا "الكوكتيل" ضروري لنضارة البشرة....

سمعت نصيحتها وأفرغت محتوى الكوب المنعش بعيداً عن أنظار الضيوف كما طلبت، فيبدو أن تقاليد جدتي وقواعدها السلوكية باتت مدرسة دخلنا صفوفها بقوة سلطتها وإصرارها. إذ كان المهم لديها: كبْت الحاجات الغريزية وتجاهلها. قوة خفية وتحكّم طالما استفزّ نساء العائلة لكن ذلك ولّد معتقدات رست في أعماقنا رغم اعتراضنا عليها فيما مضى واتهامنا لجدتي بالرجعية والتخلف. إذ كانت تؤمن إيماناً مطلقاً أن الحاجة إلى الطعام والعاطفة ليست إلا نوعاً من الغرائز، وعلى الأنثى أن تمارسها سراً لتحيط نفسها بشيء من الغموض المطلوب أصلاً لدى السيدات، يكفي تناول ما يسدّ الرمق، للمحافظة على الرشاقة، ورغم تجاهل الجميع لتصريحات جدتي كانت مثل تلك الأمور تسبب التوتر والمضايقة لخالاتي، وزوجات أخوالي، حتى زوجة خالي البرازيلية الأصل التي نشأت في بيئة لها تقاليدها وعاداتها المختلفة عن نمط حياتنا وعاداتنا، لم تسلم من تعليقات جدتي، فالمرأة برأيها كائن لا يغيره الزمان ولا المكان. وهكذا فرضت عليها قوانينها، واستغلّت غيرتها الشديدة من نساء دمشق الجميلات، فأقنعتها أن الرجال يفضّلون المرأة التي تُظهر نعومتها وتدّعي أن معدتها لا تستوعب إلا كمية طعام تكفي عدة فراشات، أو عصافير، والرجل الذي يرى رشاقة جسدك لن يخطر بباله أنك تتناولين ما يطيب لك من أصناف الطعام في أثناء وجوده خارج المنزل. المهم أن تكون الكمية قليلة مع كثيرٍ من الحركة.

ورثنا أفكار جدتي، دون إرادة منا. وبتنا نبحث عن صيغة مناسبة لإرضاء ضيوفنا. فيجب علينا أن نوحي لهم أننا نشاركهم المائدة، فنسكب الطعام في الأطباق، لكن نتركها كما هي، وبالكادّ

نشارك بتناول قطع صغيرة الحجم وناعمة من أصناف الطعام المصفوفة على الطاولة. وقد سمعت جدتي مرة تقول وهي تمسك عصاها بيدها اليمنى وتضربها في الأرض وتسند خصرها باليد اليسرى وتشمخ برأسها إلى الأعلى فيهتز منديلها الحريري ويلامس خديها وجبينها بحركة تحمل الكثير من الاعتزاز بماضيها: "أمضيت مع جدك قرابة ثلاثين عاماً، وكنت أجلس معه إلى المائدة وأتناول قليلاً من الطعام بهدوء فيقول: "كلي يا خديجة حالك لا يطمئن"، فأجيبه : "يوه يا أبو محمد شايفني خجلانة. هذه عادتي منذ كنت صبية، معدتي صغيرة فماذا أفعل؟"

لم تنته تعليمات أمي فعادت توصيني، وهي تفتح درج خزانة المطبخ، وتخرج الملاعق، والشوك مستغلة الزمن لحظة بلحظة:

- ابتسمي ليشرق وجهك وتلمع عيناك، واستخدمي ذكاءك في انتقاء الأحاديث الشيّقة والردود الذكية، فأنت في حضرة عائلة القادري .... صحيح كل شيء "قسمة ونصيب" ولكن المثل يقول: اسعَ يا عبدي ... ولم تكمل المثل لأنها تعرف أني حفظت كلامها غيباً.

تركتني لحيرتي، وراحت تركّز حواسَّها على أسرار الطبخ التي تملكها جميعاً لتقدّم أشهى ما لديها لضيوفٍ فوق العادة.

3

في غرفة الاستقبال التي عملت أمي أقصى جهدها لتبدو مريحة وجذّابة، جلس والدي وإلى يمينه رجل الأعمال محمد القادري. وأمام لوحةٍ عُلّقت فوق حوض صغير تسبح في مياهه الصافية ثلاث سمكات صغيرات، وقف شاب يرتدي بدلةً كحلية اللون وربطة عنق بلون النبيذ، يتابع حركة السمك وينقر بأصبعه على جدار الحوض ثم يعاود النظر إلى اللوحة التي شُكلتْ في إطارها صورةٌ لي، التقطتها إحدى صديقاتي وأنا أقف على المسرح الجامعي، أقدم مسرحية لقيس.

قال والدي بفخر غامض:

- وصلت الصحفية.

فرد القادري باللهجة الحلبية المحبّبة:

- أشو عليه، ونحن جاهزين للمقابلة.

قبّلني صديق أبي على وجنتيَّ وقال مشيراً إلى الشاب:

- وهذا هو الأستاذ جلال ابن uncle محمد. درس التجارة والاقتصاد، ويعمل مديراً لأعمالي في كندا.

قلتُ آلياً:

- أهلاً وسهلاً، تشرّفنا.

بدا جلال أنيقاً ووسيماً بابتسامة لطيفة وعينين ممتلئتين بريقاً.

أحسست أن اتفاقاً سرياً جرى بين والدي وصديقه بتدبير من أمي التي تتقن تدبير كل ما يتعلق بأسرتنا.

فإعجاب أمي بعائلة القادري لم يكن وليد زمن قريب، بل منذ طفولتي وأنا أسمعها تتحدث عن طريقتهم الراقية في التعامل مع المرأة، والنظر إليها كسيدة بكل معنى الكلمة. لذا أحسستُ قبل دخولي أن سعادتها مرهونة بارتباطي بآل القادري.

أشياء كثيرة كانت تبدو بالنسبة إلي غريبة ومحيّرة، فعلى الرغم من المحبة التي كانت تكنّها أمي لوالدة جلال، كانت تتحدث عن وفاتها بسعادة غامضة. إذ قالت ذات مرة وهي تبتسم: "توفيت والدة جلال في مدينة القاهرة أثناء عودتها وصديقاتها من حفل لأم كلثوم".

كأن أمي شعرت سلفاً بالسعادة والارتياح لتخلّصِ ابنتها من تسلّط حماتها، فقد عانت هي من حماتها عشرات السنين. وقد سمعت عشرات المرات أن أم جلال من السيدات الأوائل اللواتي بادرن إلى قيادة السيارة. وقد حصلت تلك الخطوة النادرة الحدوث آنذاك بتشجيعٍ من والد

جلال، وهذا يدل، في قاموس أمي، على مدى تحضّر والد جلال وانفتاحه.

بعد أن أدركت عمق رغبة أمي في تزويجي من جلال، قررتُ أن "أحاول" بذل أقصى جهدي لأُريحها وأحقّق حلمها. فاستحضرت الأنوثة المتوارية في كياني لتمتزج بملامحي، وأغدو أنثى لا تقاوم.

استمعتُ إلى حديث جلال فبدا لي رقيقاً ومنفتحاً. إذ تحدّث عن أهمية العمل الصحفي عموماً، وأهميته في الغرب خصوصاً، وأن المرأة تستطيع أن تمارس أي عملٍ هناك، دون منغّصات. كما أدلى بآراء إيجابية عن دور المرأة المتعلّمة في النهوض بمستوى المجتمع، وأن العمل يُكسِبها الخبرة والتجربة حتى في مجال تربية الأولاد. وحدثني جلال عن طبيعة عمله في شركة والده وعن أهمية الوقت وتنظيمه وضرورة الترفيه والاسترخاء في العطلة الأسبوعية.

عاودني التفكير بقيس وموعدي معه حين دخلت أمي تدعونا لتناول طعام الغداء. إنها المرة الأولى التي أتخلّف فيها عن موعدي معه، ولاسيّما أنه في أمسّ الحاجة لحضوري لكي أساعده في إعداد المسرحية.

تُرى كيف سيكون موقفي أمامه حين يقرأ أسراري ويلحظ تغيّري، ويعلم سبب غيابي وتأخّري عن موعدي؟ أو ما هو موقفي حين يعلم حقيقة ما يجري في كواليس أمي التي ما تنفكّ ترسل رسائلها عبر إيماءات صغيرة، فتحوّل مسار الأحداث لتتناسب مع مصالح أسرتها؟

قررتُ أن أنتظر حتى المساء لأرى إن كانت الرياح ستجري بمشيئة أمي. وجلست مع ضيوفنا لعلّي أجد انسجاماً بيني وبين جلال، لاسيّما أن كلمة أمي: "قيس لا يفكّر إلا بالمسرح" كانت ترنّ في أذني.

كانت مظاهر الترف جليّةً في ملامح جلال وعطره وبدلته الأنيقة، وكانت لغة الثراء ترسم خطوطاً وعلامات فارقة في حديثه.

تحدّث عن رغبته في زيارة المصايف السورية، وأطلعني بعد الغداء على قائمة طويلة من أسماء الأماكن التي يودّ أن يزورها. ثم سألني عن إمكانية مرافقتي لهما وعائلتي في رحلاتهما إلى مصايف اللاذقية وطرطوس وحماه ودمشق، فقلت: "إن شاء الله"، وهذه إجابةٌ اعتاد كثيرون من أبناء بلادي قولها حين يخجلون من رفض أمر أو دعوة ما، أو يسوّفون في تنفيذ أمرٍ ما.

بعد أن ذهب "عمو" محمد للاستراحة في الشقة التي يملكها في شارع بغداد، انفتح المجال لأمي فاستلمتني، وأصبحتُ بين يديها وجبةَ ملابس مُعَدةً للغسيل. لقد سمعت عن غسيل الأمعاء وغسيل الكليتين لكني لم أسمع من قبل عن غسيل المشاعر الذي تمارسه أمي مستخدمة أفضل ما لديها من مساحيق التنظيف حين يتعلق الأمر بمستقبل ابنتها.

قالت بإصرار بالغ:

- جلال شخص رائع. وهذه فرصة من ذهب لا يمكن تعويضها يا ابنتي. فإن رجلاً يجمع بين الأخلاق، والثروة، والوسامة، والانفتاح، واحترام المرأة قلّما نصادفه في عالمنا المليء بالمظاهر الخدّاعة.

4

عند الثالثة والنصف اتصلت بقيس لأعتذر عن عدم حضور التدريب على المسرحية. كنت متردّدة، وأحسست في لحظة أن جسدي يرتعش وروحي كئيبة، فقلتُ بصوتٍ مبحوح:

- ألو قيس، كيف حالك؟
- بخير. وأنت؟
- لا بأس... ما أخبار المسرحية؟
- أُجري عليها بعض التعديلات. وأنتظر سماع رأيك.
- آسفة قيس لن أستطيع أن أتدبّر أمري فيما يخص موعدنا. لدينا زوّار قدموا من كندا، ويبدو أن إقامتهم ستطول. وبالتأكيد سيصعب علي الخروج. فهناك واجبات وأعمال كثيرة علي القيام بها لمساعدة أمي، فلا تنسَ أني ابنتها الوحيدة ... على أية حال لابدّ من ذهابي إلى المحاضرة الصباحية. وسنلتقي عند السابعة والنصف لتقرأ لي كالعادة.
- لا بأس...إلى الغد.

لم يكن ما قلته لقيس مبرراً كافياً، فهو يعرف أني كثيراً ما اصطنعتُ أعذاراً لوالدتي، وفي ظروف أكثر إحراجاً.

في تلك الليلة، ساورني القلق في اتّجاهين: الأول برودة قيس تجاه غيابي وسببه، والثاني هو مستقبلي، فعاودتني بقوة عبارةُ أمي: "قيس لا يفكّر إلا بالمسرح" التي أخذت تلحّ عليّ بطريقةٍ استحواذية مؤلمة.

قاربت الساعةُ الثانيةَ صباحاً ولم يزرني النوم. شربت كوباً من اللبن، وتناولت قرصي أسبرين لعلّهما يُسكتان صراع أفكاري وصداعي الليلي.

في الصباح كان وجه دمشق مغسولاً بأمطار ربيعية انهمرت غزيرةً في الليل والصباح الباكر. وكان قيس كعادته ينتظرني في نهاية حيّنا عند بائع القهوة الذي يجدد ابتسامته كتجدد الصباح ويقول: "يا صباح الخير والياسمين والورد الجوري"، ثم يختتم بعبارة: "ألف صحة على قلبكم يا أستاذ ويا آنسة. وفّقكم الله يا أولادي!" فنمضي في طريقنا بقلوبٍ مطمئنة.... ولم يكن طيب الحديث وحسن الخلق يقتصر على باعة القهوة والسحلب والفستق والفول وغيرهم من سكان تلك المدينة الساهرة عشقاً، بل لدمشق تاريخ في بلسمة جراحنا وتطييب خواطرنا واحتضاننا، أبناءً وضيوفاً، بكثير من الحب. فعشقنا الأماكن في حناياها وربوعها، ورقدنا عند منعطفاتها ودفء شمسها وحنان حجارتها وروعة حمائمها.

ولأني عشقت تفاصيل تلك المدينة كنت أحسّ أن يدي تقبض على الجمر كلما أفكّر في الابتعاد

عنها.

لم يكن ذاك النهار بالنسبة إليّ كغيره من الأيام التي حفلت بالحيوية والمواعيد مع إبداعات قيس الأدبية. ولم تلفّني حالة النشاط والفرح التي تلازمني عادةً حين نلتقي صباحاً.

سألني قيس:

- ما بك رقية ؟
- أشعر بالغربة.
- لماذا ؟ هل نويت السفر بعيداً ؟
- لا، أبداً.

إن هذا الإحساس المفزع بالغربة يتملكني بين الحين والآخر ولا أدري ما سببه. صمت قليلاً كأنه ينتظر أن أبوح له بشيء. ولم أجد حينها الأمر يحتمل المماطلة أو التأجيل، ففي أعماقي فضول لمعرفة حقيقة مشاعر قيس. هل يفكر بمستقبل يجمعني به حبيبةً وزوجة؟

نبشت ما لدي من جرأة خرجت بصعوبة إلى شفتيّ، ورويت له قصة عائلة القادري التي استضفناها في منزلنا وما دار بيني وبين أمي.

ظل صامتاً، ونحن نسير، وقبل أن نفترق ليذهب كل منا إلى محاضرة الساعة التاسعة، استوقفتُه. كانت عيناه حزينتين وقطرات عرق تنسكب من جبينه وعند شاربيه، رغم برودة الطقس، فسارعتُ إلى مواساته، بدلاً من أن يواسيني هو، وقلتُ والألم يعتصر قلبي:

- قيس، أنت كاتب. وأصحاب المواهب أقوياء، بما لديهم من طاقة، يصبّونها في حقول الإبداع فتثمر أدباً خالداً، وتزيل غبار الحزن والتوتر.

قال بتأثّرٍ بادٍ:

- ليتك لم تفاجئيني بهذا الخبر، فأنا لا أحب المفاجآت. على أية حال أتمنى لك التوفيق. واعلمي أنكِ ستظلين دوماً الطفلة التي أمضيت معها أجمل الأيام والناقدة والقارئة الرائعة و... حبيبتي.

هذا كلّ ما قدّره اللهُ على قوله! ومع ذلك، قبل أن تنأى المسافة بيننا، ندهت وكأني أواسي نفسي بعد أن عزّ المُواسي:

- قيس .... ما نزال على موعد!

لم يُجب بكلمة واحدة... وحين اتّسعت المسافة بيننا، التفتُّ فرأيتُه يبتعد مسرعاً دون أية التفاتة. انهمرت دموعي وأنا أتذكّر كلام أمي ونصائحها: "قيس عاشق للإبداع ولن يفكر بالزواج".

5

خلال تلك الإجازة زرنا المصايف السورية مع ضيوفنا. كان السيد محمد القادري سعيداً لتقرّبي من جلال، وربما اعتبر ذلك أحد نجاحاته التي توطّد علاقته بوالدي وتحافظ على صداقتهما التي تميزت بالإخلاص والنجاح لأكثر من ربع قرن.

كان طيف قيس يرافقني أينما حللت، ويغرقني في بحر من التفكير. فمعرفتي الجيّدة به، ومشاركتي له في المسرح تعليقاً وتمثيلاً، كانتا تُشعرانني بالطمأنينة إلى جانبه.

في حقيقة الأمر كنت على دراية بما ترسمه أمي، لكن الزمن الجميل الذي أمضيته برفقة قيس جعلني أتجاهل أي شيء يبعدني عن لحظات استمتاعي بحضوره الدائم في حياتي. ولم أفكر بما قد تحمله الأيام من مفاجآت. وحين بدأ أول ملامح الغربة يلوح في الأفق صار لأحلامي طعمٌ ممزوج بالقلق وغياب الاستقرار.

لم أعرف مثل ذلك التشتت من قبل. كانت أمي تراقبني بقلق. وحين لاحظت شحوبي وتشتت ذهني، وأدركت أن شيئاً يؤرّقني، استعانت بجارتنا الصيدلانية، صديقتها التي تملك القدرة على الإقناع، فاستعانت بها لتستخدم معي أسلحة إقناعها كلّها، ودخلت إلى المطبخ لتحضير القهوة. راحت مريم تشرح لي فوائد السفر. وتقص عليّ تجربتها. فقد عاشت في فرنسا طوال سنوات الدراسة. وسافرت مرة أخرى إلى ألمانيا مع زوجها وأمضت أربع سنوات، تعلمت خلالها الألمانية وشاهدت مدناً ومتاحف ومعارض، وعرفت ثقافات متنوعة، وخلصت:

- كثير من الفوائد يمنحك إياها السفر فلا تترددي، والفرص الذهبية قلما تتكرر.

ثم أضافت بعد أن رأت صمتي مُطبقاً:

- حبيبتي رقية، أنا أعلم أنك تحبين قيساً، لكن الحب قد يتراجع بعد الزواج لتبقى المعاملة الحسنة التي تزيد الحب بين الزوجين. وكم من زيجات بنيت على الحب ثم انهارت صروحها بعد الزواج بوقت قصير.

كنتُ "أحاول" امتصاص كلمات مريم التي قالتها قبيل سفري:

- انتبهي رقية، إن كل المفاهيم التي تعنينا ونسعى لتحقيقها لاهثين، كالحب والفرح والجمال والقوة والنجاح، وحتى الانتصارات في الحروب، ليست إلا حالات استحضار يقوم بها عقلنا الباطن، وما علينا إلا أن نفعّل إرادتنا ليصبح كل ما نتمنّاه واقعاً حياً.

  يمكن للقابعين في السجون والمعتقلات أن يستحضروا فرحاً لا ينعم به ساكنو القصور وروّاد الشواطئ وراكبو اليخوت الفخمة.

صمتت قليلاً كأنما لتوردَ مثالاً يؤكّد كلامها، ويُسهم في تخفيف ألمي، فأضافت:

- أعرف سجيناً أمضى سِنيَّ سجنه يستحضر الحرية في روح غجرية، يُلبسها ما يشاء من أساور وفساتين، ويرسم شعرها الأسود الطويل، وينفخ ريحاً لتطيّره بجنون، ويضع وشماً على أنفها وذقنها وظاهر يديها، ويراقصها...يراقصها حتى يصل معها إلى أقصى حدود النشوة. ظلّ سنوات يأتي بها يومياً، ولا يملّ من إلباسها ورسمها ووشمها ومراقصتها...حتى أتى يوم خروجه من السجن....أتدرين ماذا قال لي؟ قال: "لقد ضاعت غجريتي عند باب الخروج من سجني".

فاسعدي يا حبيبتي باستحضار الفرح رفيقاً لتحافظي على رقّتك وجمالك.

راقت لي اللعبة، فسارعتُ إلى تنفيذها. اعتذرتُ من ضيفة أمي ودخلت غرفتي وحاولتُ استحضار قيس. وسرعان ما ولجت عالماً غرائبياً.

رأيتُني أرتفع. ولكن لم يكن لدي أجنحة لأحلّق عالياً كما تفعل الطيور، بل راحت قدماي تعلوان وأخذتُ أنتقل من مكان إلى آخر كأنني داخل سفينة فضاء. وكنت أخشى أن أفقد الجاذبية الأرضية فأختفي في الجو كما تختفي السفن والطائرات في مثلث برمودا. ولم أكن سعيدة وأنا أعبر الأماكن وأحضر الأشياء التي أحتاجها. و كنت أشعر بخوف من ارتفاعي إلى الأعلى فأشد قدمَيَّ نحو الأرض.

وقد تكرر الحلم ذاته في فترات متباعدة. وفي كل مرة كنت أعتقد أن الطيران حصل فعلاً. وحين يفصلني استيقاظي عن الحلم وأكتشف أن كل ما رأيته كان مجرد أحداث مرت في الحلم وليس لها أية صلة بالواقع، تنتابني خيبة أمل. فالحلم جعل الأشياء سهلة المنال. كنت أرى الناس يقفون وينظرون باستغراب لما أمتلك من طاقة هائلة ومن تلك الميزة التي لا يملكها عامة البشر، وأتعجب أنا أيضاً من فقدانهم لإمكانية الطيران.

أيقظتني أمي من حلم أو كابوس لم أستطع تفسيره، وقالت:

- رقية، جلال يطلب التحدث إليك.

وأومأت إلي أن أختار طيب الكلام في حديثي.

لا أدري ماذا حصل في أثناء غيابي عن واقع الإدارة المنزلية أو عن مطبخ أمي السري، فقد دعاني جلال للخروج لتناول العشاء في مطعم وطلب أن نكون وحيدين.

لبست فستاناً أسود ناعماً ووضعت على كتفي شالاً حريرياً بلون الخمر ولبست حذاءً أنيقاً. ثم وقفت أمام المرآة أتأمل جسمي وشعري الطويل وأرش عطري. سمعت حينها جرس الباب يرن وأمي تقول "أهلا يا ابني. أهلاً جلال". وأسرع شادي يخبرني ويقول:

- رقية، خذيني معك.

قبلته وداعبت شعره وقلت:

- حبيبي هذا مشوار ثنائي. ألا تذكر كم ذهبنا في رحلات جماعية؟...غداً سيكون مشواري معك إلى أي مكان تختاره.

أخذت محفظتي وألقيت نظرة على وجهي في المرآة فلمحت طيف الأنثى المنقلبة على نفسها.

كان جلال يمتلك اللباقة الكافية لاستمالتي، إذ قال :

- رقية، صحيح أن والدي طلب مني زيارتكم في دمشق لكي يحصل بيننا تعارف، وصحيحٌ أن فترة تعارفنا قصيرة جداً، ومع ذلك، أشعر بانجذاب حقيقي نحوك. لكني لا أدري حتى الآن ما هو رأيك أو إحساسك الحقيقي تجاهي. فقد خرجنا وعرف كل منا أشياء لا بأس بها عن الآخر. any way أي باللغة العربية : على أي حال. (فبدأت أحس بأول خيوط الغربة يشدني خارج دمشق)، كوني متأكدة يا رقية أني سأنسحب وأعتذر إن كنت قد سببت لك أدنى إحراج.

قلت حينها في سري: مجنونة من تتخلى عن ترف العيش في مملكتك وتقاوم جاذبيتك ووسامتك. فأعاد السؤال مرة أخرى: - أرجوك رقية قولي لي حقيقة مشاعرك.

قلت :

- أنت شابّ رائع يا جلال، وقريب إلى القلب، لكني أخشى من الغربة وقسوتها. أخاف أن تأكلني نار الاشتياق إلى أمي وشادي.

قال وهو يبتسم فبدا فمه جذّاباً، ولاح في عينيه بريقٌ راح يطويني، ويحوّلني إلى أنثى تذوب أمام رجولته:

- اتركي هذا الأمر لي. هناك ألف طريقة لاستثمار الوقت في تلك البلاد. في مونتريال حيث نقيم يوجد جالية عربية من كل البلدان، ناهيك عن موظفات الشركة المتعددات الجنسية، بعض منهن من أصل سوري وأخريات من أصل تونسي وجزائري ومغربي و فلسطيني. لن تشعري بالملل أبداً. إضافة إلى عطلة نهاية الأسبوع التي تتعدد خيارات أماكن وكيفية قضائها.

كان جلال مختلفا كل الاختلاف عن قيس وكأن كل واحد منهما ينتمي إلى كوكب. فقيس الذي نشأ يتيماً وعمل منذ صغره في المقاهي و المطاعم ومستودعات الكتب ليكسب لقمة عيشه بدا أكثر صلابة وقوة وإصراراً على تحقيق هدف أشمل وأسمى، أما جلال الذي انحدر من عائلة غنية وطبقة تُجيد لغةَ التجارة والأرقام، وتسعى إلى رغد العيش، وتفكّر في كيفية قضاء العطل الأسبوعية والسنوية، فقد عُجنت ملامحه بالرفاهية والترف وبدا ذلك في عطره وساعة يده وبدلته وحذائه وحتى لون بشرته التي بالكاد لفحتها شمس الاستجمام الصباحية فأكسبته صبغة وردية وصفاء عينين لم تعرفا الحرمان يوماً. لا أدري لماذا خطرت تلك المقارنة بين جلال وقيس ببالي ربما لتذكّرني بالتناقضات الذي يزخر بها العالم. ورغم أن نظرة قيسٍ القابضة على شعاع الشمس

ظلت تسكنني وتبحر في عالمي، فقد جذبني ثراء جلال ووسامته فابتسمت وتركت له فرصة ملامسة يدي في محاولة ثانية منه. وحين أحسّ بموافقتي أخرج علبة وفتحها وألبسني خاتماً رائعاً من الماس.

الآن فقط أدركتُ أن لباقة جلال وأناقته المتأتّيتين من نشأته الحسنة وأصوله العريقة سببُ توق أمي إلى تزويجي منه. كنت أقرأ رغباتها منذ زمن، لكني لم أكترث لما يدور في خلدها، وحسبت الأمر مجرّدَ أحلام أمٍّ بتحقيق سعادة ابنتها.

زارنا جلال ووالده مرةً أخرى قبل عودتهما إلى كندا. كانت جلسة ممتعة. حدثني والد جلال عن المنزل الذي يجهّزه ليليق بي وبجلال. ثم طلب أن يتم الزواج والسفر في أسرع وقت، وأبدى استعداده للقيام بكل التجهيزات اللازمة للعروس.

غير أن أمي التي تضع كل حساباتها في الميزان أصرّت أن يتم الزواج بعد تخرجي.

وافقا على مضض، وقد أبدى جلال ذلك حين قال لي ونحن نقف وحيدين على شرفة منزلنا:

- لقد تعلقت بك يا رقية، وسيكون فراقك أمراً صعباً.

عاد السيد القادري وجلال إلى كندا بعد انتهاء الإجازة المخصصة لزيارتهم إلى دمشق، وقد أخذ جلال عهداً مني على مواصلة التحدث إليه وتحضير نفسي للسفر بعد أن أنتهي من تقديم امتحاناتي. وأخذ يحدثني عبر الهاتف كل مساء.

6

مرت الشهور سريعة كأنها أيام معدودة. كنت منشغلة بدراستي، محاولة الحصول على درجة التفوق، فلم أكن أنوي البقاء في البيت دون عمل في مجال الصحافة. كنت مولعة بتدوين الأحداث وكتابة السير الذاتية، إضافة إلى حبي للعمل في مجال الإعلام.

في شهر أيلول من عام 1994 قدم جلال إلى سورية، ليس لرحلة اصطياف خطّط لها مسبقاً، بل أتى ليتوّج حبه ويضمني إلى حياته. لقد تعلّق قلبه بحبي. إنها نصائح أمي وإرشاداتها التي أسهمت في جذبه إليّ، فالجمال وحده لا يساوي شيئاً في عالم عائلة تتمتع بأصول عريقة. وصار وقتي انتظاراً لسفري إلى دنيا جديدة أجهل معالمها.

كانت أمي تُمضي نصف النهار في الأسواق، تشتري ملابس العروس ثم تعود لتطلب مني ارتداء كل قطعةٍ وكأنني في حفل لعروض الأزياء وتكتشف أثناء التجريب إن كانت مناسبة. وفي كل مرة تضع فوق الملابس حزمة من الوصايا، منها ما يتعلق بملابسي ومناسبات ارتدائها، وأخرى تخصّ حياتي التي ستكون حافلة بالتجارب والمفاجآت. وركّزت على أسلوب معاملتي لجلال وطريقة استمالته وكيفية حصولي على حقوقي بالدلال والمراوغة. فحسب رأيها، يحب الرجل المرأة التي تتحول في لحظة واحدة من امرأة فاضلة إلى "جنّية" تخطف قلب الرجل وعقله، ثم تعيده إلى رشده في الزمان والمكان المناسبين.

اقترب رحيلي إلى مملكة جلال. لفّني الحزن على فراق أسرتي وقيس. وعند سرير شادي الصغير انهمرت دموعي بمرارة، فقد ألفْتُ مشاكساته وأناشيده وتساؤلاته العفوية.

أما والدي فقد استلم منذ زمن إدارة أحد فروع الشركة في سوريا، وكان يسافر بين البلدين من حين إلى آخر، مما أعطاني الأمل بأن أحداً من عائلتي سيظل على تواصل معي ولو في فترات متباعدة.

بدأ البرد يغزو أضلعي حين اقترب موعد السفر، وصرت أشعر بالفقد والحزن. وأتلمس هروب عالمي الجميل دون عودة، فالحقائب باتت جاهزة، وصوري ودفاتر ذكرياتي كلها صارت في حقائب سفري.

لم يعد للمنطق مكان في عالمي فكل ما أعرفه أني اعتدت لقاء قيس منذ طفولتي. أحببت شعره ومسرحه ومبادئه وألفت مرافقته وانتظاره. والآن، باتت تفصلني ساعات عن الطائرة التي لم أصعد إليها من قبل.

حبست أمي دموعها وعادت توصيني بأن أهتم بنفسي، ثم أضافت:

- الكون بكل ما فيه من تناقضات، يبقي على حقيقة واحدة. (وما أكثر الحقائق في قاموس أميّ، حقائق من النوع الدسم والمفيد هي: أن القوة الداخلية للإنسان تحفظ توازنه و ثباته أمام المصاعب).... كوني قوية، واهتمي بنفسك، وبجلال.

وبسبب غياب المنطق أيضاً حسبت الغيوم التي رأيتها من نافذة الطائرة ثلوجاً متراكمة، وعجبت لهول تراكمها، لكني تنبهت بعد قليل إلى شاشات العرض التي تخبر المسافرين عن حرارة الجو خارج الطائرة.

هبطنا في مطار مدينة مونتريال. ودمشق التي ضمتني كياناً ونشأةً وعشقاً، هاهي تملأ ذاكرتي إلى حد الإيلام. الأماكن غريبة والمناخ مختلف كلياً، والمطار موحش ومقفر رغم امتلائه بالمسافرين.

للوهلة الأولى، شعرت بالصدمة وغياب الوعي. فهناك لون مختلف للعالم المترامي أمام قلبي. تمنيت أن أقف قليلا لتأمل ما يحصل، وأقرأ ما كتب باللغة الإنكليزية كدليل لوجهة السير. كان والد جلال في انتظارنا وبرفقته مجموعة من السيدات والشبان والفتيات.

لا أعرف أحداً منهم وليسوا جزءاً من ماضيَّ. فلم يكن للّهفة والعناق مكان في ذلك المطار البارد.

أحسّ جلال برعشتي فضمني إلى صدره، وقال:

- هؤلاء أهلي وأصدقائي وبعض من موظفي الشركة حضروا جميعاً لاستقبالك.

رحب الجميع بنا وهنؤونا. عبّر كل منهم بلغته الخاصة فاختلطت اللغات العربية والإنكليزية والفرنسية لتختار أجمل مفرداتها لتعبر عن الأمنيات بالسعادة.

أمام ذلك التغيير الذي حصل في حياتي كان جلال رائعاً. أحببت نبله وكرمه، وقد بادلته بما يشتهي الرجل من محبة واهتمام. وكانت الموسيقى صديقة دائمة لمنزلنا تحيطنا بكثير من الدفء والاستقرار.

لم يخيّب جلال أملي، فقد عمل كل ما يستطيع ليبعد عني شبح الغربة، فأكثر من زيارات التعارف، وأفسح لي المجال لإدارة قسم الإعلام في الشركة، بالإضافة إلى نشاطي الحر في مجلة "نبض الشرق". كان جلال رائعا. وقد علمتني أمي كيف أمتلك قلبه كما امتلكت قلب والدي.

وكلما شعرت بضعفي كنت أتذكر كلمات أمي "كوني قوية واهتمي بنفسك وبجلال وأحبي نفسك ليحبك جلال" غير أن قوتي كانت تخونني حين يدب في قلبي الحنين وتملأ الذكريات مخيلتي، فأشعر بالبرد يجتاحني ويبدو كل شيء مختلفاً، وأشعر أن زرقة السماء الداكنة والخطوط والكتل البيضاء من الثلوج التي بدت مستقرة إلى ما لا نهاية، وشرفات المنازل الخاوية من أي كائن بشري أو غيره من الكائنات، على عكس ما اعتدنا سماعه ورؤيته في دمشق وغيرها من المدن السورية، من صياح هنا وحوار بين مجموعات من الرجال والشبان وأصوات ضحك وقهقهة هناك، كلّ هذا كان ينعكس برودة في داخلي. لم أعد أرى الحمام يحط فوق أسطح المباني القديمة وفي نوافذها المهجورة. كما غابت أغاني أم كلثوم عن المقاهي والنوافذ الساهرة. الأمر الذي زاد إحساسي ببعد المكان وغربته.

7

في صباح اليوم التالي للعرض هاتفت قيساً وتحدثنا عن المسرحية، وكعادته لم يظهر فرحه بالنجاح. تماماً كما كان يفعل أيام المدرسة فكلما حظي بنجاح سعى إلى نجاح آخر.

اتفقنا على قضاء يوم العطلة في ضواحي مونتريال حيث يوجد مطعم يقدم مأكولات شرقية، كانت فرصة للّقاء مع قيس وفتيات من بلادي والتعرف إلى ديلارا التي فتنت الحاضرين على المسرح.

في المطعم تناولت الفتيات العصير والخضار والسمك والقليل من الخبز، أما ديلارا التي بدت أكثرهن رقة وجاذبية وهي ترتدي بنطالاً من الجينز وقميصاً فيروزي اللون وقد ضفرت شعرها على شكل ذيل الفرس، فقد تناولت القليل من السمك والخبز وطلبت من النادل أن يقطع لها صحنا من التفاح قطعاً صغيرة أكلتها بالشوكة وهي تتحدث معي كمن يتسلى بقطعة من الشكولاتة. وحين علمت أنها تمضي كثيراً من وقتها في القراءة والكتابة أحببتها وزادت رغبتي في التقرب منها بل أحسست بانشطاري ليصبح جزء مني يلاحق تلك الصبية المسكونة بالأحلام. إنها مثلي تعشق الموسيقى والمسرح بيد أنها صاحبة موهبة غريبة وتصميم لا مثيل له. سألتها عن سر موهبتها وإبداعها فاقتربت مني وكأنها تعرفني منذ زمن ونظرت من زجاج المطعم إلى الجبال البعيدة ، وقالت :

- سأطلعك على مذكراتي يوماً. ومن خلال ما دونته وسأدونه لاحقاً ستعرفين كل شيء عن حياتي.

كنت أحاول أن أسبر ملامح شخصيتها. هي التي سلبت قيس صلابة قلبه، وهاهو يذوب أمامها كقطعة جليد اقتربت من نار متّقدة.

تمنيت أن يعيش قيس ذلك الحب الجارف الذي يدفعه للكتابة ومتابعة تأليف المسرحيات وكتابة الشعر. وقد أخذت نجاحات المسرح تتوالى وتنتقل العروض من مسرح إلى آخر، وكنت ألتقي قيساً وديلارا كلما انتهى عرض المسرحية. لم يستطع قيس إخفاء إعجابه وافتتانه براقصة الفلكلور وحافظة تراث فلسطين.

كان يتغنى بجمال قامتها ورشاقتها وسمرة شفتيها المتلئتين وسحر عينيها وجمال شعرها وحلاوة روحها.

إنها أنثاه التي أذاقته الحب ورمت بصلابة قلبه في مهب الريح.

ولأني لاحظت افتتان كثير من الفنانين ورجال الأعمال بجمالها وسمعتهم يتحدثون عنها في منزلنا عند زيارتهم لجلال. استسلمت لرغبتي ودعوتها وجميع أفراد الفرقة إلى منزلنا وطلبت من الخادمات القيام بواجب الضيافة على أكمل وجه. لقد أبدى جلال إعجابه بجاذبيتها وعفويتها

وغرابة طموحها. سألت جلال:

- هل ترى في ديلارا زوجة مناسبة لقيس؟

قال:

- أعتقد أن صبية مثل ديلارا لن تفكر بالزواج فهي تبدو مغرمة بالمسرح، إضافةً إلى فارق السن بينها وبين الأستاذ قيس فهو يقارب الخمسة عشر عاماً على ما أعتقد، أليس كذلك؟

- تقريباً.

فكّرتُ بكلام جلال. شيءٌ ما في داخلي جعلني أتمنّى أن يكون صحيحاً، ومع ذلك ألفيتُني أقول في سري: مسكين أنتَ يا قيس، ستذوق العذاب الذي ذقته يوم أهملتني وأسلمتَ نفسكَ لسحر الإبداع. والآن، هاهي حبيبتك، حسب ظني، وجدت المسرح حبيباً مقدساً تسير إليه بعشق جنوني.

لا يمكن لجلال أن يحسّ بعاطفة حيال امرأة غيري، فأنا لا أدع له فرصة البعد عني. أنا الأنثى التي تشعّ حرارة وتجذبه عطراً وملابس ناعمة ورشاقة جسد، إضافة إلى أن زوجي قد ورث احترام الزوجة وأصول العلاقة النقية. على أية حال، من منا يستطيع أن يقرأ ما يدور في أخيلة البشر فنحن نملك حرية التخيل ونسبح في مساحات أخيلتنا الحرة متى وكيفما نشاء. إن هذا الأمر نعمة إلهية لا يمكن وصفها، تأخذنا إلى حيث نريد و نشتهي فنستحضر الفرح والحب والجمال ونحياه بكل أبعاده و تفاصيله.

ولّدت تلك المشاعر لدي رغبة بكتابة سيرة ذاتية و قصة إبداع فريد أجادت به بطلة قيس. وقد كان محقاً في كل كلمة عبّر بها عن إعجابه لتكون أول عمل أخوض به غمار الصحافة باندفاع و شغف بالغين. وحين رجوتها أن تقص عليّ حكايتها قالت سأكتب وأرسل إليك مذكراتي أو أنتظر سفرك إلى دمشق فنلتقي و نتفق على طريقة سردها و أسلوب تقديمها للقراء.

و قبل أن تغادر فتحت حقيبتها وناولتني دفتراً أسود وعليه رسوم نافرة لشجيرات خضر صغيرة وقالت:

- لقد سكبت بعضاً من ذاكرتي على صفحات هذا الدفتر، وسأتابع نثر ما تصطفيه الذاكرة من أحداث تستحق التدوين. وهكذا سأسلّمكِ ذكرياتي في فترات متلاحقة.

وضعت الدفتر في حقيبتي كمن يقبض على حلم أضاعه إحساس دفين بقسوة الغربة. ولأني على موعد مع قراءة ذاكرة ديلارا، فاتنة قيس، سارعت إلى أخذ حمام دافئ، وجلست أتناول القهوة مع جلال لكن قلبي سبقني إلى سريري حيث أقرأ بينما يجلس جلال كعادته في مكتبه. قبّلت جلال ودخلت مملكتي الصغيرة.

كتبت بخط يتأرجح بين الدقّة والاضطراب:

مذكرات ديلارا

1

"في أواخر حزيران من صيف عام 1997، مر نهار استثنائي على قرية كرم الزعرور. فقد ظهرت غيوم متباعدة حجبت بعضاً من زرقة السماء فبدت كجزر خاوية وسط بحر تجلّى الأزرق على امتداده بأجمل درجاته. وحين بدأت الغيوم تقترب بعضها من بعض مشكِّلةً سحاباً داكناً، قالت جارتنا وهي تحمل كيساً من الخيش وتصعد السلم الخشبي إلى السطح:

- البارحة أذيع في النشرة الجوية عن هطول أمطار.

فردّت أمي:

- أنا أفهم أكثر من النشرة الجوّية، فالهواء الرطب يوحي بقدوم المطر.

في ذلك اليوم عاد الفلاحون قبل موعد القيلولة لإنقاذ أرزاقهم المفروشة تحت أشعة الشمس، فراحت النسوة يعتلين سطوح المنازل. ويجمعن حبوب الذرة والقمح المجروش والبندورة والحمّص قبل أن تبللها الأمطار، بينما أسرع الرجال والصبية لجمع خيوط التبغ المعلَّقة على مناصب خاصة في الحقول، أو بين أغصان الأشجار، تحت أشعة الشمس لتجفّ ويتحوّل لونها إلى الأحمر الوردي. ثم تُفتّح الأوراق وتوضع في أكياس خاصة ليُباع معظمها لإدارة حصر التبغ، أما الباقي فيُباع بالمفرق لمدخّني "التتن".

لم يمض وقت طويل حتى انقشعت الغيوم، وأشرقت الشمس من جديد بعد أن جرفت الأمطار أوراق التوت والعنب والرمان ووزعتها في زوايا الدار، واختلطت بخصلات حصرم وحبات توت أسقطها المطر قبل نضجها. من خلف سور دارنا بدت أشجار التوت والسنديان العتيق بجذوعها الخشنة، والمجوفة من الداخل لتصبح مأوى للسناجب.

وتبعاً لطبيعة الأرض المنحدرة يتسنى لك أن ترى الجزء العلوي من الأشجار وأنت تقف في أعلى الهضبة، حيث تربض دارنا، فترى الأوراق مغسولة، لامعة تحت أشعة الشمس، تسري في خضرتها روح الحياة وحيويتها.

انتشلني من غفلتي صوتُ أمي وهي تقطع العجين لتخبزه في التنور الكائن في الزاوية الشرقية من دارنا:

- أسرعي وخذي الخراف لترعى في أرض الحصيد، فالوقت بعد الظهر يمضي مسرعاً والشمس تميل صوب البحر.

كنت أصدق ما تقوله الجارات: أن الشمس تغرق في البحر عند المغيب.

سرت خلف خرافي القليلة –أمي تربّي الخراف من سنة إلى سنة لتُنحر في عيد الأضحى- في ممر ضيق محاط بشجيرات الرمان من كلا الجانبين. بلّلتني قطراتٌ ساخنة كانت قد توارت في طيات الأوراق الغضة، فشعرت بقشعريرة تسري في جسدي، وأمامي بدت بقايا سنابل ذهبية نمت بين سيقانها أعشاب امتدت وتسللت أوراقها الخضر حول الأوتاد اليابسة تعلوها زهرات بيض على شكل سنابل القمح. راحت الخراف تقضم العشب بنهم. التفتُّ لأرقب السفوح الممتدة أمامي: جبال وهضاب متوازية تترك متسعاً يطلّ على البحر، فتبدو المراكب الراسية كصناديق صغيرة في حضن المياه.

وقبل المغيب جلست هناك أتتبّع صفّاً من النمل يحمل حبات من القمح وقشات يفوق حجم الواحدة منها حجم النملة ويحجبها، فخُيِّل إلي أن القشّة تسير من تلقاء نفسها بقدرة خفية. حاولت مساعدة نملة بنقل حبة إلى فوهة مسكنها لكنها أبت وتشبثت بما تحمله.

كنتُ أدَع التراب يتسرب من بين أصابعي وأنا أمهّد طريقاً للنمل، وفجأةً حملت إلى مسمعي نفحاتُ هواءٍ هبّت من الوجهة الغربية لأرضنا صوتاً حسبته شدو بلبل في حضن الساقية يردد الوادي صداه.

بين القش والتراب والأعشاب لزمتُ الصمت وأصغيت للموسيقى الشجيّة. وأمام ذاك المدى الرحب أطلقتُ العنان لأحلام لا تحدّها الحدود.

في تلك الدروب الضيقة المؤدية إلى الحقول أمضيت طفولتي أركض خلف رفّ من الفراشات، وأحاول الإمساك بها، وتحطّ فوق الأزهار، فأحوّل أصابعي على شكل كماشة وأمسك بجناحيها، ولم أكن أعلم لماذا تعتلي الفراشات بعضها بعضاً. فقد كنتُ أظنّ أن الفراش يقتصر على الإناث.

في تلك الدروب عرفت الرهبة والرغبة والخشوع، عشقت البراري حيث الزنابق البرية وخضر السنابل تتسلل إلى فتحات قميصي، وتدغدغ الأعشاب كاحلي فأشمّ عبق البراري.

كنت أسكن وسط ذلك الجمال الذي فتنني وحوّلني إلى عاشقة للغابات والحقول والموسيقى التي خلق صداها في روحي ذلك العشقَ الصوفي للكون بما فيه من نبل و نقاء وإنسانية.

2

في غمرة تلك الأحلام كان علي أن أسعى لتحقيق رغبة أمي في دراسة الأدب الفرنسي فكل من علّمني اللغة الفرنسية كان يثني على مهاراتي اللغوية. وأكدت عاتكة على إجادتي للّغة، قواعدَ ومحادثة. ليشهد شاهد من أهلها، فالسيدة عاتكة فرنسية من أصل جزائري، التقاها خالي حين كان يكمل دراسته التخصصية في طب العيون، وتزوجا.

عاتكة امرأة تفيض حيويةً، لذا لم يكن للفارق في السن تأثير على علاقتنا. وقد أطلعتني على مكتبتها العامرة بكتب الأدب العربية والأجنبية التي أغنت حياتي بالمتعة والفائدة.

ويبقى المسرح هو شغلي الشاغل. فقد كانت حوارات المسرحيات التي أقرأها تقفز إلى ذاكرتي فأقف أمام المرآة وأجسّد شخصية البطلة. ولطالما انتظرت فرصة خروج أفراد أسرتي لأقف أمام المرآة وأقوم بدور البطلة. وكانت كليوباترة الأقرب إلى قلبي، فكنت ارسم في خيالي أنطونيو وأحاوره، ثم أنتقل من شخصية إلى أخرى. وحين أسمع وقع أقدام أو أحسّ أن أحداً وضع المفتاح في قفل باب المنزل ألتزم الصمت، وأتظاهر أني منهمكة في حل مسألة رياضيات أو قراءة كتاب، بانتظار فرصة أخرى أمارس فيها هوايتي أمام صديقتي المرآة. وتلحّ التساؤلات في مخيلتي فأسجّلها على صفحات دفاتري لأبحث عن إجاباتها في مكتبة عاتكة. وكان معظمها يتعلّق بتاريخ الفنون والموسيقى.

قادتني إلى المكتبة وأشارت إلى مجموعة مجلّدات تحمل عنوان قصة الحضارة، وقالت: "ستجدين في المجموعة ما يُشبع فضولك". وأكدت أنها من أهم الكتب التي يجب عليَّ قراءتها قبل دخولي إلى الجامعة. ثم مررت يدها على الكتب المرصوفة بشكل أنيق في المكتبة، وأخرجت أحد أجزائها. قالت وهي تقلب صفحات الكتاب بحثاً عن تاريخ الفنون: "أكثري من القراءة وصحبة الكتاب. ففي عالم الكتب لا نعيش لوحدنا، بل يرافقنا أصدقاء مخلصون نسبح وإياهم في عالم الفكر فلا يملّون ولا ينضب نبع عطائهم ولا يصمت صوت تشجيعهم".

وقد وجدت ضالتي فالكتاب يُظهر اختلاف المفكّر عن غيره من الناس من حيث تذوقه للجمال وطبيعة إحساسه وزمنه. ففي المجتمع البدائي لم يكن يوجد فارق زمني بين الإحساس بالجمال والرغبة الجنسية. قلت: إذاً للمبدعين فلسفة مختلفة عن غيرهم من البشر العاديين، ومنزلتهم أرفع من منزلة هؤلاء. كنت أفتش عن العلاقات الإنسانية بأفضل أشكالها ومعانيها، ووجدت أن المسرح يخلق تلك العلاقات ويطورها. فما كان مني إلا أن سعيتُ، وكان مسعاي في بداية المرحلة الثانوية حين قدّمت لمدرس اللغة العربية ملخصاً لمسرحية أنطونيو وكليوباترة. وكان المدرس ناشطاً في مسرح المدرسة. أطلعته على طريقة تقديمها، واقترح علي القيام بتمثيل الدور مع مجموعة من الطلاب. وحين علمت أختي، التي كانت تعمل مدرّسة رياضيات في المدرسة ذاتها، شنت علي حملة اتهامات بالطيش والجنون وهدر الوقت. كانت جدية وصارمة ومتسلطة. وتبعاً لما لديها من معتقدات ومفاهيم، كانت تجد في من يخالفها الرأي شخصاً فاشلاً يستحق العقاب. ثم فاتحت مدرس اللغة العربية بنفس القصة وعاتبته فتأسّف بطريقة لبقة لعدم إخبارها. حدث ذلك في

المدرسة أمام بعض الطالبات. ولم تكتف بتأنيبي أمام صديقاتي، بل أكملت كلامها اللاذع في لمنزل، وكأنني ارتكبتُ أكبر المعاصي، فبكيتُ بمرارة من قسوة تأنيبها. شعرت آنذاك أني في أمسّ الحاجة للتحدث إلى عاتكة التي تملك الفكر المنفتح على العالم المتطور، لكنّ زيارتها إلى القرية كانت تقتصر على أيام الصيف.

كان خالي يدرّس في كلية الطب البشري في جامعة دمشق، وكانت عاتكة تعمل في مكتبها مترجمةً للكتب لصالح عدة دور نشر.

كان ابن خالي الأكبر طارق يدرس الطب في ألمانيا. أما جاد فكان طالباً في كلية الحقوق ولديه مرسم في العاصمة يمضي فيه معظم أوقاته ليمارس هواية الرسم ويقيم معارض للفن التشكيلي. وكنت بمثابة الابنة المدللة والصديقة القريبة إلى قلب عاتكة مما جعل الصيف أكثر حيوية ومتعة برفقتها.

قدم خالي وعائلته كعادتهم لقضاء الصيف في القرية وكنت أحضّر نفسي للشهادة الثانوية وأنتظر موعد قدومهم بفارغ الصبر. في الصيف ينطلق المصطافون لممارسة هواياتهم، فيذهب وابنه جاد للصيد مع مجموعة من الأصدقاء والأقارب فتدعوني عاتكة إلى منزلها. تعلمني دروس الفرنسية ونستمع إلى الموسيقى. وفي كثير من الأحيان كنا نذهب إلى الحقول. وكلما مررنا بالسنديانة التي رأيت يوسف جالساً في ظلها يعزف الناي، تلحّ عليّ الرغبة في سماع تلك المعزوفة.

كنت أُودِعُ عاتكة هواجسي وأسراري. وأنتهز الفرص المناسبة لأطلعها على ما لدي من مواهب. وحدثتها عن شغفي بالمسرح، ومثلت أمامها المسرحية التي قمت بتحضيرها، ونلت بعد ذلك عقاب أختي جزاء فعلتي تلك.

أبدت إعجابها بموهبتي وإحساسي بفن رقص الفلكلور وأداء دوري في مسرحية أنطونيو و كليوباترة، ثم سألتني:

- لماذا لا تدخلين كلية الفنون المسرحية؟

- لأن أمي تريد أن أصبح مدرّسة للّغة الفرنسية.

- اسمعي ديلارا. عليك أن تدافعي عن نفسك وتختاري الموضوع الذي ترغبين بدراسته.

قلت:

- سوف أسعى جاهدة لتحقيق رغبة والدتي أولاً، ثم أفكر برغباتي الخاصة.

قالت وهي تنظر إلى وجهي وكأنها تختبر إرادتي وإصراري:

- وهل تنوين دراسة المسرح بعد تخرجك؟

- أحلم بتأليف فرقة مسرحية تقوم بتجسيد الفلكلور والتراث الشرقي بدءاً من الفلكلور الفلسطيني.

- وما أدراك بالفلكلور الفلسطيني وأنت سورية الهوية والإقامة؟

- قرأت عنه في أدب كتابها وشعرائها، كما شاهدت كثيراً من أقراص الـ (DVD) التي سُجِّلت عليها أعراس وأفراح أُقيمت على الطريقة التقليدية. كم تعجبني هذه التقاليد، لاسيّما أنها لشعب مظلوم يتنقّس قضيته مع الهواء، وتسري في دمه، وتستوطن أيامه ولياليه، وأحلامه وأمانيه، ويُرضعها لأطفاله مع اللبن، وملأت مسامّ فنّه وأدبه وفلكلوره. وأعتقد أن بوسعي أن أساعد هؤلاء المظلومين على طريقتي الخاصّة.

تنهّدت بعمق، ثم قالت وهي تبتسم:

- إذاً اسمعي ديلارا سيأتي لزيارتنا الكاتب المسرحي المعروف قيس عبد الجليل. فقد دعاه oncle علي لرحلة في الغابات، والكهوف في جبالنا. وسأحدثه عن هواجسك.

سألتها بلهفة عن موعد الزيارة فقالت:

- غداً.

3

اتفقتُ وعاتكة أن يبقى الأمر سراً بيننا نحن الاثنتين. وفي الصباح، أنجزتُ أعمال البيت كلّها، بنشاط بالغ، على غير عادتي، ثم أخبرت أمي أن زوجة خالي مدرّسة متمكّنة، وأنها ستشرح لي الدروس الأولى من منهاج الشهادة الثانوية، وستعلّمني المحادثة والقواعد.

كنت أمهّد الطريق وأختلق مبررات لذهابي إلى عاتكة والبقاء في منزلها دون أن تسرع أمي في طلبي حين تدرك أني تأخرت عن موعد عودتي إلى المنزل.

وضعت في جيبي مرآة صغيرة، وقلم كحل بحجم عقب السيجارة، وخرجت بعد استئذان أمي. خلف السور حجبتني شجرة توت وارفة الظل فتمكنت من رسم خطوط كحل دقيقة داخل رموشي ليضفي على سوادهما سواد وجاذبية. وتزاحمت آلاف الأفكار وأنا في طريقي إلى منزل خالي. فلطالما تخيلت الطريق إلى المجهول مملوءاً بالمفاجآت التي يخفق قلبي لها ويستعد لتلقّيها بفارغ الصبر وحرارة الحب المتّقد دوما في كياني.

حين وصلت منزل عاتكة كان الجميع يشربون القهوة على شرفة مطلّة على الحقول الممتدة والمغروسة بأشجار التفاح والكرمة. أسرعت عاتكة لاستقبالي. طوّقت كتفي بذراعها، وقادتني إلى الشرفة. قالت كمن تفتخر بعنفوان زمن مضى:

- انظروا، هذه عاتكة الصغيرة! إنها تذكّرني بأيام الصبا. حبيبتي ديلارا ستكون طالبة متفوقة العام القادم إن شاء الله في جامعة دمشق.

ثم وجّهت أنظارها إلى الضيف، وقالت :

- الأستاذ قيس عبد الجليل كاتب ومدرّس في المعهد العالي للفنون المسرحية.

قال بابتسامة رقيقة:

- ديلارا !!اسم جميل وموسيقي! .... تُرى ماذا يعني؟

أجبتُه مزهوةً:

- نور الشمس أو سارقة القلوب.

- يا له من اسم رائع! غير أنه غريب بعض الشيء.

قاطعه خالي موجها كلامه لزوجته:

- أكثري من الاختبارات لديلارا في القواعد والمحادثة. هذا سيسهّل عليها فهم المحاضرات منذ البداية.

لا أدري بأي نوع من الجنون أفشيت سري وقلت بصراحة:

- لو كانت لدي حرية الاختيار لكان المسرح خياري المفضل.

قال على سبيل المجاملة محاولاً إخفاء انزعاجه في حضرة صديقه:

- المهم أن تحصلي على مجموع جيد في الثانوية العامة أولاً، و بعدها نتحدث في موضوع أمنياتك.

بدا الأستاذ قيس في أواسط العقد الرابع من العمر. يرتدي قميصاً فضفاضاً أبيض اللون مقلَّماً بأقلام رفيعة سماوية اللون، وبنطالا من الجينز، وشعره أشيب ممشط بشكل عشوائي. وعيناه تحكيان قصصاً مبهمة وتجارب شتى... تذكّرني بأولئك الأبطال الذين قرأت عنهم في الروايات.

لم يكن مهتمّاً برياضة بدنية تجعله يبدو كنجوم السينما، لكن جاذبية حديثه منحت لملامحه وملابسه العفوية جمالية من نوع خاص، وحققت انسجاماً بين الشكل والمضمون. هبّت عليّ رائحة عطر مثيرة وغريبة، وأنا المجنونة الوحيدة المضرَّجة بالأحلام، والشجيرة الفتية التي لم يسبق أن قلَّمَ أحدٌ فروعَها الغضة. أثارت فضولي طبيعته الجدية ونظرته الثاقبة التي يبدو أنها معجونة بالتجربة والمعرفة. ثمة شيءٌ ما لدى قيس عبد الجليل جذبني منذ اللحظة الأولى. ولستُ أدري ما هو. إنها الكيمياء، كما يقولون في هذه الأيام. ربّما لأن عاتكة استفاضت في الحديث عن علمه وموهبته.

شعرتُ أن هذه اللحظة تختلف عن كل ما سبقها.

استأنف قيس حديثاً كان قد عُلّق لدى دخولي. وأخذ يتحدث عن ملوك النفط وتأثيرهم في العروبة والإسلام. آنذاك لم تكن تلك الموضوعات السياسية تثير اهتمامي، فوقفت أمام المكتبة أنظر إلى عناوين الكتب، لكن أذنيّ كانتا في مكان آخر. كان ما يرويه مؤلماً وغريباً، فاقتربت وجلست من جديد لأصبح متلقيه لا تعرف إلا القليل عما يدور في العالم.

حين تحدث خالي عن اللوبي الصهيوني الداعم لإسرائيل، قال قيس إن أموال الخليج التي تضخّ في البنوك الأمريكية تخدم إسرائيل وتقوّيها أكثر فأكثر، فألفيتُني أسأله ببراءة:

- ألا يوجد لوبي عربي؟

ابتسم وقال:

- حدثني صحفي بلجيكي مطّلع عن المبالغ الخيالية التي ينفقها أثرياء الخليج على طاولات القمار والخمر ووو...، وأضاف أنه لو أُنفق جزءٌ ضئيل من تلك الأموال على دعم القضية الفلسطينية لهُزمت إسرائيل شر هزيمة.

كما تحدث عن مخاطر التعصّب الديني الذي يصبّ في مصلحة الاستعمار، ويقدم له خدمات مجانية تُضعف المجتمعات العربية، فيمد الطامع أذرعه الأخطبوطية لتفتيت العالم العربي والإسلامي.

أخرج نظاراته من جيبه وقرأ جزءاً من مقالٍ كان في حوزته عن خطط استخبارات صهيونية أمريكية هدفها تغذية التعصّب الديني والطائفي اللذين يخلقان الاقتتال بين أبناء الوطن الواحد. كان حديثه مقنعاً، وجدياً، فتمنيت أن يلقي محاضرات حول هذا الموضوع، أمام جيل الشباب في كل أنحاء الوطن لتنمية الفكر الواعي والثقافة التي تشكل درعاً، يحمي وطننا. تمنيت أن أرى ابتسامته، لكن قيساً كان يظهر نصف ابتسامة فتبدو أسنانه من تحت شاربيه بلون حوّله التبغ إلى لون عاجي.

سألت السيدة عاتكة عن سبب غياب الفرح عن عالم ضيفهم. فقالت إن هؤلاء ورثوا الطبيعة الجدية منذ أن أُجبر أجدادهم على النزوح من أراضيهم.

كنت أبحث في ملامحه عن أسرار المسرح. كيف ومتى بدأت تجربته؟ ترى كيف ألفت انتباهه إليّ؟

لكي أثير اهتمامه ما كان مني إلا أن قلتُ بمنتهى الفجاجة:

- أستاذ قيس، أنا لدي اهتمام بالمسرح، ومحاولات بدائية في كتابته، وأتابع الإصدارات الأدبية والفنية والفكرية.

كانت ابتسامته تقع بين السخرية ومشارف الإعجاب. لكنّ ذلك لم يثنني عن متابعة إظهار مواهبي فذكرت له أسماء الكتّاب الذين قرأت أعمالهم، وتوّجتُ كلامي بالقول إني قرأت مسرحيّاته الثلاث أيضاً، واستظهرتُ له مقطعاً من مسرحيته الأخيرة "فلسطين قصدنا".

قال جاد:

- هكذا يقفز الأدب الجميل إلى الذاكرة.

أثرتُ تساؤلات عن فلسطين كي يطول حديثه الممتع، لكنّ عاتكة نادتني من المطبخ وأخبرتني أنها تصنع قالب كاتو بمناسبة عيد ميلاد جاد. تجاهلتُ حديثها وقلتُ مراوِغةً:

- يبدو أن عمو قيس مثقف جداً.

قالت:

- طبعاً، فهو قارئ من الدرجة الأولى. ومهتم بقضيته الكبرى، ولا يوفّر جهداً لاسترجاع الحق لأصحابه مهما طال زمن النزوح.

قلت لنفسي: يا إلهي إنه يشبه بطل رواية قرأتها منذ زمن. سأخاطبه "أستاذ" ثم "عمو" فأعلن براءتي أمام خالي وزوجته. ألقاب ليست إلا غطاء لما يدور في مخيلتي.

قلت:

- عيد ميلاد بلا موسيقى! ما هذا!؟ كيف نميز بين عيد الميلاد والمأتم- لا سمح الله؟

وبعد أن وُضعت كؤوس العصير وقالب الكاتو على الطاولة، قالت عاتكة:

- اختاري الموسيقى التي تعجبك وراقصي جاد.

يا لها من فرصة أظهر فيها موهبتي أمام (أستاذ المسرح). خشيت أن يأتي زائرٌ ما من القرية ويقطع علي رغبتي في الرقص.

جهزت عاتكة آلة التصوير. حسدت نفسي على تلك المصادفة. أستطيع أن أرقص أمام خالي وزوجته وقيس الذي منحه لقب "عمو" صفة تحميني من أية ريبة يمكن أن تحوم حول نيّتي.

أطفأ جاد الشموع وتلقى القبل والتهاني والأمنيات بالعمر المديد. وبعد ذلك وضعت قرصاً يحوي موسيقى الناي في محرّك الأقراص، ورحل قلبي إلى عالم الأنغام المسكون بالسحر. وحين سكبت الموسيقى أنغامها في روحي التواقة إلى عرشها الأبدي، أسلمت قلبي لشدوها الرائع ورقصت الموهبة القابعة في عالمي المجنون على أنغام يوسف وأحاسيسه المجبولة بالإبداع. لم أملك جرأة النظر في عيني قيس لأكتشف إحساسه بفن الرقص الذي مارسته أمامه. غير أن صمته المطبق وثبات نظراته المصوبة إلى جسدي بدت واضحة من خلال رؤية غير مباشرة اختلسها قلبي قبل عيني.

حين جلسنا لتناول الكاتو والعصير، كانت وجنتا قيس متوهجتين بلون وردي وقد بدت بشرته من خلال الشعر المتناثر والمتموج بين الأبيض والأسود في وجهه. قلت :

- أنا أستغرب أن يعتبر البعض الرقص نوعاً من الإغراء.

قال قيس:

- كل يفكر حسب إرثه الثقافي والفكري. فالرقص ليس إلا تدفق الموسيقى في روح الراقصين كما يتدفق الينبوع في مجرى النهر. والجسد ليس إلا أداة طيعة بيد الروح العاشقة لتلك الفنون المقدسة. والرقص ليس تعبيراً عن الفرح فقط، فهناك قبائل تمارس الرقص كنوع من التعبير عن الحزن فتقرع الطبول ويمارس الرقص التعبيري كطقس من طقوس الحزن على فراق أحبة رحلوا و تركوا لذويهم مشاعر الألم والحزن فيتم التعبير عن الألم بنوع من الرقص ويسمى "الرقص التعبيري" ننحني له ونقدره ونحترمه كما نحترم الموسيقى و نقدرها. وفي كثير من الأحيان يمارس الرقص للتعبير عن مشاعر الشوق، أو القلق والتوتر والكبت بكل معانيه وأشكاله. وهو أصدق تعبير عن مكنونات النفس.

وختم كلامه قائلاً بعد أن عبّ ما تبقّى من عصير في كأسه، وكنا جميعاً ننظر إليه منصتين:

- إذاً لا يمكن لأحد منا أن يجزّئ الفنون باعتبارها أشكالاً متعددة من الجمال.

وحين سارعتُ إلى سؤاله عن الرقص الشرقي قال:

- أنا أرى أنه أحد أجمل الفنون وأكثرها قدرة على التعبير، ولا أبالغ حين أقول إني أستطيع أن أتعرف على نمط الشخصية من خلال الرقص حيث تبرز بوضوح درجة الإحساس والفكر والفلسفة موزعة في حنايا الموهبة.

كانت هذه أول مرة أسمع فيها كلاماً كهذا. ولعلّ ما رسّخه في ذاكرتي هو طريقة قيس الجذابة والرشيقة في قوله.

وكان إعجابي يزداد بقيس كلّما تكشّفت لي لباقته في إيجاد الرد الملائم على كل تساؤل. وجدت فرصة للبوح بشيء من أحلامي. فتحدثت عن رغبتي في إنشاء فرقة تؤدي رقص الفلكلور والدبكة والطقوس الشرقية القديمة ورقص المعابد.

فقال خالي:

- يُستحسن أن تهتمي بدروسك أولاً لأجل أمك التي أفنت حياتها في رعايتكم.

قاطعه قيس إذ قال محاولاً إنقاذي من موقف محرج:

- الموهبة لا تؤثر سلباً على سير الدراسة. بل كثيراً ما يحدث العكس، ويتفوق أصحاب الهوايات في مجال الدراسة أكثر من غيرهم. والمعروف على وجه العموم أن ممارسة الهوايات تخلق نوعاً من التوازن النفسي لدى غالبية الأشخاص فهم يجدون في الموهبة ملاذاً لتفريغ طاقاتهم، وموطناً آمناً يحميهم من التشتت والضياع.

لم يكن فارق السن يعنيني في شيء. فقد أحببت حديثه وثقافته الشاملة لكل معاني الفكر والفلسفة إضافة إلى السياسة والاقتصاد، وأخشى ما كان يخشاه هو تفشي التفكير الديني المتطرّف الفاقد لأي شكل من أشكال العلم والمنطق.

كم كنت أحلم أن ألتقي برجل يتمتع بسمات قيس وفكره، لذا كان همّي في ذلك الوقت أن أترك صورة حلوة راسخة في ذاكرة قيس. وهكذا حاولت إثارة موضوعات شيقة. أغويت قيساً من خلالها بصمت. أغويته سراً. ذلك الإغواء الذي لم تمتلك الأنثى في داخلي الحق في إظهاره ولا القدرة على إخفائه. إنه زمن رسم الأحلام. في زمن الأحلام كنت أرسم رجالاً عظماء، رجالاً وطنيين يتبنون قضايا كبرى ومبادئ سامية. أحببهم وألتقي بهم لأشاركهم حمل الراية. وحين يُقتلون دفاعاً عن القضية كنت أتمنى أن أموت لنفس الهدف. كان قيس يشبه أولئك الأبطال الذين رسمتهم وقابلتهم وتحدثت إليهم. ولأنه لم يخصّني باهتمام تتمناه الأنثى عادة أن يحدث، ظل كالحلم بالنسبة لي. تمنيت أن أشغل تفكيره كما شغلني. ولأجل الحفاظ على صورتي في ذاكرته، سألته عن الفلكلور والتراث، والموسيقى والرقص الراقي، وما إذا كان هذا الفن سينال نصيباً في مسرحياته القادمة.

نظر إلي مبتسماً وقال:

- وما أدراك بتلك الثقافات؟ يا له من أمر رائع أن تمتلك صبية في مثل سنك ثقافة مسرحية مرموقة. في الحقيقة هذا أمر لا يمكن تجاهله.

ولم أجد الإغواء إلا مقدمة للإبداع الذي بدأت أرسم لصناعته. تركت لعاتكة تتمة ما أرغب البوح به، واعتذرت بعد تشرفي بفرصة لقاء الأستاذ قيس متمنية له نزهة ممتعة في ريف طرطوس الغني بغاباته وأنهاره وينابيعه وصخوره وكهوفه، وخرجت. تذكرت عاتكة أن تقول شيئاً فنادتني من الشرفة:

- ديلارا، أحضري مقرر مادة الفرنسية، ولا تتأخري.

فتبعها الأستاذ قيس وقال:

- دعيها تنتظر سأعطيها كتاباً تفيدها قراءته.

فصعدت درج المنزل حتى صرت في منتصفه وكان قد نزل لنلتقي أحسست أن قلبي لم يعد في مكانه. قال:

- تفضلي هذا الكتاب هدية مني لطالبة ذكية أنتظر منها الكثير.

نظرت في عينيه وسألتُه:

- أستاذ قيس، سنلتقي في دمشق أليس كذلك؟

قال :

- إني أنتظرك بفارغ الصبر.

مشيت إلى المنزل وسط محاولة مضنية لإسكات صوت قلبي وإخماد نار لهفتي إلى المسرح كي لا يكتشف أحد من عائلتي حجم تضرّجي الذي ينمّ عن اتّساع أمنياتي.

4

كانت عاتكة تعمل كل ما في وسعها لتفي بوعدها لأمي وتجعلني أتقن اللغة الفرنسية فتعبر عن خوفها من جموح خيالي وكثرة أحلامي وبعدها عن مرمى والدتي.

كانت المسافة بين منزل عاتكة ومدرستي تقارب نصف كيلو متر. الطريق ينحدر باتجاه غابة من أشجار التوت العتيقة التي يتم قطاف أوراقها وتقديمها غذاءً لدودة القز. رائحة أوراق التوت المنعشة ملأت الجو. والشمس لم تغب بعد على نسوة، من بينهن خالتي المسكينة، يعتلين جذوع الأشجار ويملأن أوراق التوت في أكياس من الخيش فتنتشر رائحة عبقها إغواءً ما كان ليتم لولا المطر. كنّ يقطفن أوراق التوت قبل المغيب ليكون ذلك آخر الأعمال التي يقمن بها خارج المنزل، لتضاف إلى ساعات طويلة من العمل المضني. وحين يحل الظلام ينتظرن إنهاكاً من نوع آخر بعد أن يصبحن يابسات كالحطب. لا أدري كيف ترضخ المرأة في قريتي لأوامر الرجل إلى حد لا يطاق. فخالتي تهرب إلى منزلنا في الشهر مرة أو مرتين إثر ضرب زوجها المبرح لها، فتصل وعلى وجهها كدمات زرقاء وحمراء. كنت أراها في الحقول تبكي وهي تجمع الحشائش للمواشي. وكان زوجها يأتي إليها ويضربها بعصاه إذا لم تعجبه سرعتها في إنجاز مهمتها. وقد حاول خالي مراراً عديدة إقناعها بالانفصال عنه والذهاب للعيش في منزله في دمشق لكنها كانت تتمسك بأولادها، وتتشبث بأرضها التي أضناها التعب وهي تعمل بها، فتزرع وتسقي وترش المبيدات. كنت أكرهه حين كان يأتي ليقودها كالنعجة إلى منزله. وكانت أمي ترجوه بكلمات طيبة وتقول: "الله يرضى عليك يا صهري طول بالك." وقد سمعتها يوماً تشكو لأمي وتقول إنه يعذبها في الليل ويعاملها كالحيوان. وفي النهار كان يصمت. لم يكن يكلمها بل يرتدي ملابسه الأنيقة ويخرج دون أن ينطق بأية كلمة يعرب بها عن وجهة سيره. وفي أحدى ليالي الشتاء الباردة وجده الفلاحون المبكرون لحماية مزروعاتهم من خطر الصقيع ميتاً وملقى على طريق زراعية قرب منزل إحدى الغانيات.

كانت فرحتي لا توصف إذ نالت خالتي حريتها وصارت تعمل بحماسة ورغبة في أرضها. فيا لتعاسة امرأة تنتظر موت زوجها لتتخلص من وطأة الاضطهاد رغم حاجتها الماسة لوجود رجل يساندها ويحميها! غير أن مصاعب الحياة بما فيها من أعمال قاسية يصعب على المرأة القيام بها تظل أقل مرارة من الذل والقهر والخوف من حماقة الزوج وتسلطه دون أي مبرر. كنت أكره جهل أولئك الرجال المتخلفين والمتسلطين من أهل قريتي، وأتمنى موتهم جميعاً لترتاح النسوة من الذل والعنف بكل أشكاله. ولأن الأولاد زينة الحياة كنت أتمنى أن تلد الأمهات القليلات الحظ أولادهن دفعة واحدة ويموت الرجل كما يموت ذكر النحل بعد عملية التلقيح.

غير أن ما يثير الاستغراب أن المرأة التي كانت تعيش تجربة صعبة وتتمنى موت زوجها وتكره الرجال بسبب ما تلاقيه من ويلات، تعود لممارسة إغوائها من جديد، وكلها أمل بأنها ستجد حظاً أفضل وحياة يملؤها الحب كما حدث لأرملة من قريتنا لم تكن قد بلغت الثلاثين من العمر حين

تركها زوجها وسافر إلى أمريكا بعد أن أنجبت ولدين وظل خمس سنوات هناك ولم تسمع خبراً عنه حتى توفي بسبب تعاطي المخدرات. كانت تصنع أطباقاً لدود الحرير من التبن الناعم وروث الأبقار لتعيل ولديها. تدوس بأقدامها عجين الأطباق لساعات، فيقف الفلاحون يتفرجون على قامتها الفارعة وقدها الرائع، وهي على سطح منزلها في وسط القرية، وتدير ظهرها للمارة. ولم تكن تلتفت إلى الوراء كي لا تلتقي أنظارها بأنظار الرجال. لم يعلم أحد أنها تمارس إغواءً سرياً علمتها جدتي أدق تفاصيله. وكانت وصايا جدتي وتعليماتها تلقى آذاناً مُصغية عند الصبايا والكبار، وذلك لاحتكامها على العقل والعاطفة في آن واحد. ولقدرتها على علاج كثير من الأوجاع باستخدام الأعشاب والطب الشعبي بالإضافة إلى توليها مهمة توليد نساء القرية. كانت جدتي تهتم بالأرملة وتجد أن رعايتها تساوي رعاية اليتيم. علمتها أن تهتم بمظهرها ونظافتها، والأهم من ذلك أن تتجاهل الآخرين لاسيما الرجال. علمتها أن تدفن رغباتها لتحيط نفسها بسمعة حسنة تزيد من أهميتها واحترام الناس لشخصيتها المصونة بسياج الأخلاق المنيع.

وذات صيف رآها أحد المصطافين وأعجب بها، وكان مالكاً لوكالة للسيارات، ومسؤولاً أيضاً عن تموين السفن. تزوجها، وانتقلت لتعيش معه في منزل فسيح لم تكن تحلم بمثله طوال حياتها. فالسر عند جدتي التي أوصتها أن تقوم بتجاهل من يدورون في فلكها. وجدّتي هي من قصّت عليَّ حكاية الأرملة بعد زواجها وخروجها من القرية.

كانت جدتي تسرد الكثير من الحكايات الشعبية التي تؤكد على أهمية العقل، وضرورة تغلبه على العاطفة. ولو لم تكن جدتي تجهل القراءة والكتابة لظننت أنها قرأت نظريات فرويد ويونغ وتأثرت بمضمونها.

أشياء كثيرة كانت تدفعني للتمرد والعصيان ومحاولة وضع الرجل تحت سلطتي وإغوائي. كنت أتمنى لو أستطيع قهره وإضعافه. وظلت هذه الأفكار تتوارد في خاطري حتى وصلت إلى البيت. ففي البيت سلطة أخرى لا تقل عنفاً عن جبروت الرجال. غير أني حاولت ألا ألتقي بأختي فشغلت نفسي بترتيب غرفتي و مساعدة أمي التي أخذت تنظر إليّ بإعجاب، ثم قالت:

- إن شاء الله ستصبحين دكتورة في كلية الآداب, وأفتخر بك كما افتخرت بإخوتك.

فدنوت منها وهمست:

- معقول ماما سأصبح دكتورة؟ .....

وفي سري، كان التساؤل الأكثر إلحاحاً: هل سيفتح لي المسرح ذراعيه؟ شكرت الخالق عز وجل لقدرتنا على إخفاء صدى الخيال الذي يستوعب هواجسنا و خفايا أخيلتنا.

دخلت غرفتي وجلست خلف طاولتي لأكمل قراءة الصفحات الأخيرة من رواية السجينة التي شحذت إرادتي وأكدت لي أحداثها المدهشة أن لا حدود للممكن، وأن للإرادة ذراعين من فولاذ تصهر المستحيل وتقهر جبروته.

بدأت بعدها بوضع برنامجٍ لدراستي، ورسمٍ آخر للحلم المؤجل والمتواري خوفاً. فهناك رقيب يُحصي أنفاسي و يقرر بالنيابة عني ويستخدم صوتي ويرعى أموري كلها بمحبة قاتلة. هكذا كانت أختي مدرّسة الرياضيات تسن قوانينها الخاصة بي لتضعني في قالب صنعته وبدأت بصياغتي وتطبيقي على أساسه.

5

كانت زياراتي لعاتكة نزهة ترفيهية ممتعة، لاسيما أن الطريق إلى منزلها يوافق رغبتي في السير بين البساتين وتأمل جمالها وروعتها. كما أن بيتها يطلّ على بستان من الأشجار المثمرة. ومن يقف على شرفته الغربية يرى غابات السنديان والحور والغار وأشجار أخرى لا أعرف أسماءها.

وضعت السي دي الذي سجل عليه العرس في محفظتي وخبأته تحت مقرر اللغة الفرنسية كي أنجو من تأنيب أختي، وتوجهت إلى منزل مدرّستي.

حرارة الصيف الحارقة جعلتها تفتح نوافذ منزلها. وضعت طاولة وكرسيين خشبيين وجلست قبالتي أمام النوافذ المطلّة على البساتين، والمشرعة لنسائم الصيف الهاربة من فوق الروابي التي تلتهب تحت أشعة الشمس، وبدأت تشرح لي قواعد اللغة الفرنسية بكثير من الدقة والوضوح، وبعد شرح كل قاعدة كانت تختبر استيعابي، ثم طلبت إلي بعد ذلك كتابة موضوع كوظيفة لليوم التالي. كان الوقت يمضي سريعاً ونحن نحاول اللحاق به. قالت:

- والآن، لنشاهد السي دي.

تابعَتْ حفل الزفاف بصمت مطبق حتى نهايته، ثم نظرت إليَّ بوجهٍ متوهّج وعينين لامعتين، وقالت بلهجة شجية:

- لتراثنا روعة تفوق الخيال ! والغريب أن يكون مهملاً، بالرغم من غزارة المواهب الجديرة والقادرة على صناعة أجمل الفنون.

زيّنت كلماتُها أحلامي ببراعم اللهفة ومتعة الاحتراق شوقاً تسرّب في شرايين الموهبة.

تمنيت أن ألتقي الأستاذ قيس مرة أخرى، ليفهمني أكثر، ويتعرف إلى عالمي المفتون بالمسرح.

لكنه كان قد غادر إلى دمشق، بعد قضاء إجازته في رحلة صيد مع خالي ومجموعة من الأصدقاء.

باتت المسافة بيني وبين دمشق قصيرة وعلي أن أبذل جهداً كبيراً في الدراسة وتطوير معارفي في مجال المسرح.

قالت مدرستي:

- لا تخافي ديلارا من تسلط عائلتك، ولا تدخلي في شجار مع أيٍّ منهم.

وتابعت وهي تضع قرصاً آخر في قارئ الأقراص:

- المواهب الحقيقية لا تموت، بل تظل تدفع بصاحبها إلى البحث عن سبيل لتنميتها وصقلها. اسمعي هذه المعزوفة. إنها تحفة موسيقية مدهشة عزفها شاب من هذه القرية، يوسف،

وقد طرده والده بسبب إصراره على دراسة الموسيقى، التي اعتبرها والده، الشيخ محمد، نوعاً من الضلال. أودى به عصيان أمر الشيخ إلى البراري ليمضي نهاره في ظل السنديان، وفي الليل كان يقسم الأدوار بين أصدقائه فيبيت في كل منزل ليلة . سافر أخيراً إلى بيروت، ومن ثم إلى فرنسا حيث يدرس الموسيقى.

لا ضير في التعبير عن أحلامي وجنوني وأنا برفقة مدرستي، ولا حاجة للهروب كما كنت أفعل حين يضجّ الحنين في قلبي فأهرب إلى خارج السور المحيط بدارنا بحجة قطف الفاكهة، وأقف أمام المدى السابح، أناجي الموعد المرسوم في الأفق.

كنت أقفز وأنام على الأرض. وأقوم برياضة الجمباز. فتضحك ويشرق وجهها الأسمر وعيناها الجذابتان وتبدو الملامح الجزائرية المعجونة بالحيوية.

قالت:

- ما أروع العالم المتعدد المواهب والهوايات التي تهدف لخير البشرية! يحلم الكثيرون في العيش في مدينة أفلاطون الفاضلة، ويشعرون أنها ليست مستحيلة، ولكن سرعان ما يهدم الأشرار مخططاتهم، ويردمون طريق سيرهم ليبقى الحلم سيداً قوياً يستحيل استئصاله.

وتابعت تنصحني باستغلال الوقت والاستفادة من كل لحظة لتنمية موهبتي في الكتابة والمسرح.

ضغطت زر قارئ الأقراص بعد أن أنهت حديثها، فترنم صوت الناي الحنون ... أسلمت روحي لذاك الشدو الرائع حتى النهاية. بقيت للحظات شاردة الذهن أتذكر ذاك اليوم الصيفي الماطر آن سمعت العزف ذاته.

قالت :

- ما بك ديلارا؟

- الموسيقى مدام! الأنغام ذاتها الذي سمعتها ذات صيف. وكان عمري إذ ذاك عشرة أعوام. جذبني لحن غريب على مسمعي، فتتبعته وأبعدت أذرع الأشجار التي تفصل بستاننا عن غابة السنديان. وعرفت مصدر الموسيقى التي أدهشتني وولّدت لدي رغبة في الرقص، وحين رآني ذلك الشاب أنظر إليه تراجعت غريزياً إلى الخلف، وهربت من رغبتي في الرقص، وعدت إلى منزلي لأسدل الستائر وأرقص على ذاكرة النغمات. سمعت أحاديث أهل القرية عن قصة خلاف يوسف مع والده، وعلمت أنه سافر إلى لبنان.

قالت :

- والآن أما زالت رغبتك في الرقص قائمة؟

- إن رغبتي في الرقص لن تموت إلا بموتي. والآن، لنُعِد سماع السي دي.

قالت:

- يا لروعتك ديلارا!
- هل أعجبك رقصي؟
- لو كنت ابنتي لما ترددت لحظة واحدة في دعمك وتشجيعك للولوج إلى عالم المسرح.

سألت:

- ألا يقال إن الرقص أول طقوس العبادة، وتعبير عن مكنونات النفس؟
- نعم. ولو كنت أحد أعضاء لجنة التحكيم لحكمت على ما رأيته وقلت كما عبر قيس عن رأيه في موضوع الرقص: إن مثل هذا الفن الرائع من التعبير ليس إلا انسياب الموسيقى في روح الراقصة، والجسد أداة طيعة بيد الروح وقد ذاب كلاهما في الآخر. وما نختزنه نحن البشر من أفكار وقيم وخبرة ومعرفة يظهر في سلوكنا وردود أفعالنا.

سألتُها بحسرة:

- لماذا ترفض أمي أن أنضم إلى المسرح ؟

قالت:

- لأن والدتك فصّلت رغباتها على مقياس ما يراه أهل قريتك الأمثل بالنسبة لصبية في مثل سنك والدتها تتباهى بنسبها العريق، وبعد وفاة والدك صارت مسؤوليتها مضاعفة، وتريد أن تثبت للعالم كله الذي لا يتجاوز بضع عائلات في قريتكم أنها استطاعت أن تغرس التربية الصالحة من طاعة الأبوين واحترام التقاليد والتقيد بما يراه محيطها صراطاً مستقيماً..... هذا يعني أن الأمر في غاية الصعوبة ... لكن أجدد وعدي لك، ديلارا، أني سأقف إلى جانبك وأساعدك بكل ما أملك.

وشرحت لي الفرق بين الانفتاح على العالم والفوضى التي يعيشها الشباب. وأضافت:

- كل هذا ستجدينه في قصة الحضارة (التي كنت قد بدأت بقراءة أول أجزائها).

في ذلك اليوم عدت إلى منزلي مفعمة بالحيوية والحماس. جلست خلف طاولتي وأمامي النوافذ المفتوحة لنسائم الصيف الذي صار في أواخره، وفروع الأشجار الصاعدة إلى الأعلى بأوراقها اليابسة الأطراف، وقد أشبعتها حرارة الشمس نضجاً. أذكر أني قرأت آنذاك حتى ساعة متأخرة من الليل.

في سكون ذلك الليل داعبتني الأحلام، فخبأتها وتابعت دروسي بحماسة بالغة. كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحاً حين دخلت غرفة النوم، لكن أغنية أم كلثوم عبرت نافذة جارتنا الأرملة

لتسكب نشوة في مسمعي، وعبر سماعة الهاتف المفتوح بجانب المسجل سافرت كلمات الأغنية رسائل حب لنصفها الآخر. سمعتها تردد مع الأغنية بصوت عذب:

وغداً تأتلف الجنة أنهارا وظــلا

وغداً نزهو فلا نعرف للغيب محــلا

وغداً ننسى فلا نأسى على ماض تولّى

وغداً للحــاضر الزاهر نحيا ليس إلا

قد يكون الغيب حلواً إنما الحاضر أحلى

كلمات لوّنت أحلامي بلون وردي وزادت رغبتي في التفوق.

مرّ ذلك الصيف سريعاً كليل عاشقين وجاء شهر أيلول. سافر خالي وعاتكة إلى دمشق. كانت تلك السنة الأكثر صمتاً والأغزر إنتاجاً فقد قرأت المزيد من الكتب إلى جانب دراستي. كما كتبت مسرحية وقررت أن أحتفظ بها حتى أنتقل إلى الجامعة وتتاح لي فرصة لقاء الأستاذ قيس.

.....

سارت المراكب كما شاءت أمي. فقد شربت كأس البر والطاعة خوفاً من غضب الوالدين، ودرست الأدب الفرنسي كما تمنت ... وكنت أتردّد بين الحين والآخر على منزل عاتكة في دمشق فتساعدني في شرح ما يصعب علي فهمه. لكنها لم تستجب لطلبي في تأمين فرصة لقاء قيس. كانت تحثّني على متابعة دروسي باهتمام وتتأكد من نتائج امتحاناتي بنفسها.

كانت تعبر عن ابتهاجها كلما ظهرت نتيجة مقرر ... حملت إلى أمي بشرى تفوقي في السنتين الأولى والثانية، وطارت أمي فرحاً، وهي تحمل أخبار تفوقي، وتتباهى أمام أقاربها بتربيتها الناجحة لأبنائها .

لكن رغباتي كانت تفتش عن ممر سري للعبور إلى ما رسمته أحلامي الخفية. وأمام شوقي الدفين إلى المسرح بحثت عن قيس. تمنيت أن أجده دون علم السيدة عاتكة. أردت أن أختبر ذاكرته، بل تأثيري في ذاكرته، فأخذتُ أتردّد على المسرح القومي وأقرأ الإعلانات وأترقب العروض المسرحية ومؤلفي الأعمال التي نشرت في الإعلانات.

في إحدى المحاضرات الصباحية لمحت اسم ليلى عبد الجليل، على غلاف كتاب مقرر النقد. سألتها إن كانت تربطها صلة قرابة بالكاتب قيس عبد الجليل، فعلمت أنه عمها. تحدثت بفخر عنه وعن أخلاقه الرفيعة ودفاعه المستميت عن القضايا العربية عموماً والقضية الفلسطينية خصوصاً، في كتاباته ومحاضراته، ونشاطاته الفنية والاجتماعية والأدبية. استمعت إلى حديثها بلهفة دون أن أعلن عن رغبتي في لقائه.

قررت أن أذكّر عاتكة بوعدها. كلما كنتُ أذهب لزيارتها كانت تقول ويكاد الدمع ينهمر من عينيها:

- أصبحت صبية يا ديلارا.

كنت أحس بمشاعرها الدافئة، وأحب رقتها وتناقض أحاسيسها بين القوة، والعاطفة.

وفي هذه الزيارة، عاتبتني على طول غيابي عنها وأضافت:

- حتى خالك عاتب عليك. لقد ابتعدتِ عن محبّيك. ألم تملّي بعد من الإقامة في سكن الطالبات؟

رن الهاتف قبل أن أجيب على تساؤلها. ضحكت وقالت:

- متى ؟ عرفت المكان. نراك غداً.

وضعت سماعة الهاتف وقالت:

- سنذهب غداً لحضور افتتاح معرض للفن التشكيلي. أقامه صديق الأستاذ قيس، ويدعونا للحضور الساعة الرابعة بعد الظهر. لاحظي كيف تأتي الفرص من تلقاء نفسها.

قلت:

- إذاً نلتقي في الصالة.

وصلتُ إلى أمام الصالة قبيل الرابعة. وكان الأستاذ قيس يقف مع مجموعة من الشباب والشابات. أردت أن أستغلّ الوقت قبل أن تصل عاتكة وخالي، فاقتربت منه ونداديتُ بلهفة:

- أستاذ قيس!

نظر إلي وقال:

- أهلاً . أهلا وسهلاً .

- أنا ديلارا يا أستاذ، هل تذكرني؟

نظر في عيني ثم إلى شعري الطويل، وقال وهو يبتسم فشعّ بريقٌ في عينيه:

- وهل مثلك يُنسى؟ فأنت نور الشمس، أليس كذلك؟

ابتسمتُ زهواً وأنا أتراجع خطوتين إلى الوراء. وبحركة لبقة أدار ظهره لمن أحاط به. فأصبحنا ثنائياً. قلت:

- ذهبت إلى مكتبك وكان مقفلاً.

قال مبتسماً:

- لم يفُت شيء، أنا في انتظارك غدا عند العاشرة صباحاً.

ثم عاد إلى الكلام مع محدّثيه.

في لحظةٍ صرتُ فراشةً أطير نشوانةً في سبع السماوات، ولم لا، وقد حظيتُ بموعد أنتظره منذ سنوات؟ ووقفت أترقب خالي وعاتكة، وقلبي يناجي الحلم المتواري في ثنايا الزمن.

تجولتُ في المعرض، ثم وقفت أمام لوحة رُسم عليها جدار بحجارة قديمة، وفوق الجدار وعاء معدني قديم مثقوب في أحد جوانبه فبدا جزء من جذور النبته. قلت لنفسي: ربما رسم الفنان بقايا ذاكرة لدار سكنها يوماً. وحين أصبحت قريبة من الفنان عبرت عن إعجابي بأعماله وسألته عن اللوحة فقال:

- إنها صورة قديمة لجزء من دار جدي في الجليل التقطها خالي قبل نزوحهم واحتفظت بها بعد وفاة جدي. كنت دائما أخشى أن تضيع ونحن ننتقل من مسكن إلى آخر. لقد رسمتها كي لا تضيع ملامح الدار، فالصورة كما تعلمين قديمة وقابلة للتلف.

استوقفتني اللوحة وبقيت أمامها مأخوذة بدقة الرسم، وروعة الألوان. وخُيِّل إلي أن الجذور الرفيعة المتدلية من الجزء المثقوب قادرة على النطق.

لم يكن بوسعي آنذاك كبح جنوني وتمردي الذي قادني إلى أبواب مفتوحة على المجهول والمغامرة. فقد تناسيت صدمة أمي حين تتلقى خبر تجاوزي لتقاليد العائلة. وقد حدثتها يوماً عن قصة مشابهة لقصتي. فقالت حينها: "الله يكون بعون أهل الفتيات اللواتي يتصرفن بمثل هذا التهور والطيش".

في الصباح لم يكن قيس لوحده في المكتب كما تخيلت. فقد كان الشاعر مصطفى غريب جالساً إلى يمينه، وإلى يساره صبية في مثل سني. قال إنها إحدى أفراد الفرقة المسرحية، تلعب دوراً مهماً في مسرحيةٍ ما تزال قيد الإعداد.

أجلتُ بصري في أرجاء المكتب. كان أكثر روعةً مما تخيّلت، فصورة السيدة فيروز تغطّي نصف الجدار الأيمن، والنصف الآخر شغلته مكتبة خشبية تصل إلى السقف. أما الجدار المقابل فغطّته صورةٌ كبيرة لمسرحٍ تقف عليه شابّة فارعة ترتدي فستاناً طويلاً، وترفع يديها إلى الأعلى وتتربّع على وجهها ملامح التحدّي والكبرياء. وفي إحدى الزوايا قبعت طاولةٌ صغيرة عليها مزهرية فخّارية تحوي نباتات مجفّفة، وفي الزاوية المقابل وقف تمثال فينوس دو ميلو بنسخةٍ خزفيةٍ، صدفيةِ اللون، يبلغ ارتفاعها نحو متر.

ناول قيسٌ الممثّلةَ مغلفاً واستأذنت بالخروج. ثم التفت إليّ وسألني بلهجة معاتبة:

- كيف حالك ديلارا؟ لماذا تأخرت زيارتك؟

ابتسمت دون أن أجيب. فلم تعجبني يوماً الإجابة التي لا تجدي نفعاً، أو التي ليس لها أي وقع في أذن المتلقي.

قال الشاعر مصطفى غريب وقد توقع أن في جعبتي أسراراً خصصتها للأستاذ قيس:

- ألقاك مساء اليوم.

لكنّي خاطبتُه مباشرةً:

- أرجو أن تبقى قليلاً يا أستاذ غريب. من حسن حظي أني وجدتك هنا.

صمتُّ قليلاً، ثم قلت:

- لا أدري من أين أبدأ. وكم لديك من الوقت للإصغاء إلي.

- تفضلي سيدتي.

- المسرحية التي كتبتها تلخص بعض هواجسي.

ثم بدأت أقص حكاية الفلكلور وظروف تعلّقي بتراث المشرق العربي وبشكل خاص تراث فلسطين، وحكاية العرس الذي شاهدته على القرص المدمج.

ناولته السي دي وقلت:

- أرجو أن تشاهده اليوم. بالنسبة إليّ أرى فيه الأدب الفلسطيني، وأقرأ في تفاصيله الصغيرة أدب الشهيد غسان كنفاني وإميل حبيبي وغيرهما... هل لي أن أوضح شرحاً عن المسرحية أستاذ قيس؟

قال:

- هذا ما أتمناه .

كنت قد وضعت في حقيبتي أحد أجهزة التسجيل الحديثة. أدّيت دور العروس وهي تراقص عريسها.

بالطبع أدّيت المشهد على أنغام موسيقى الناي. أديت دوري مغمضة العينين راسمة في مخيلتي أحد أهم الحضور والذي لأجله حدث كل شيء وبذلت كل الجهود. راودتني فكرة الإبداع الذي يصنع لأجل من يقيمون في قلوبنا شئنا أم أبينا. صمت قيس. لكن غريباً اندفع قائلاً بعفويةٍ بالغة:

- بالإذن من الأستاذ قيس، أداؤكِ رائع بكل المقاييس يا آنسة! وإن حصل اتفاق بينك وبين قيس وأدّيتِ أدوارِكِ بهذا الإحساس المتميّز، ستصل أصداء نجاحاتكم إلى كل أجزاء الكرة الأرضية.

وقال قيس:

- تفضلي، اجلسي. هل يعلم خالك الدكتور علي وعائلته أنك هنا؟

- لا، أبداً.

- اسمعيني جيداً ديلارا: في هذه المسرحية التي بين يدي فكرة جميلة حقاً. لكن المسرحية تحتاج إلى صياغة جديدة وأسلوب مختلف. أما الموهبة التي تملكينها فهي كافية لتجعلك ذات شأن كبير في المستقبل....على أية حال، نحن في هذه الفترة نقوم بتحضيرات لمسرحية جديدة ستعرض قريباً في ذكرى يوم الأرض على خشبة المسرح القومي. وبعد ذلك نبدأ بمشروع مسرحيتك.

أعطاني بطاقة كتب عليها اسمه ورقم هاتفه، ثم قال لي قبل أن أغادر المكتب:

- أنتظرك في أقرب وقت ممكن.

لا تراجع في قراري، فالمسرح حلمي الأول والأخير. طرتُ إلى مكتب عاتكة، وأخبرتها بما حدث وبانتسابي إلى المسرح.

فسألتني:

- وأمك ألم تفكري بمشاعرها؟
- أنت مدام، تستطيعين مساعدتي، والوقوف بجانبي في أزمتي هذه. فقد بحثت عن حل، لكن هناك طرف غير راض في قضيتي هذه.
- المهم أن تنجحي في دراستك وتتخرجي من الجامعة بدرجة جيدة. فنجاحك في المسرح مرتبط بنجاحك في الجامعة.

تابعت محاضراتي وهواياتي. وكنت ألتقي الأستاذ قيس ونناقش أعماله ونطرح آراءنا. وأحدّثه عن طموحاتي ومشاريعي المستقبلية .

في السنة الأخيرة تلقّى قيس دعوة من مسارح عالمية وكان علي أن أسافر مع فرقته التي باتت واسعة الشهرة.

فكرت في خطةٍ ربما تنقذني من غضب عائلتي، وهي تقتضي أن أبلغ والدتي بنتائج امتحاناتي و أقول لها أن الجامعة سترسل الطلاب المتفوقين إلى كندا. تلك البلاد التي ستسافر إليها فرقة قيس.

لم تكن أمي راضية عن سفري لكني أقنعتها بأني سوف أجني فائدة كبيرة و أكون أكثر قدرة على تحدث اللغة.

كانت المسرحية عملاً ضخماً يتطلب الكثير من الجهد والوقت. بدءاً من الاسترخاء، ثم التأمل يليها الاستماع إلى الموسيقى، والجميع مغمض العينين مع إعادة الموسيقى مرات عديدة لتحقيق درجة انسجام عالية. فقد بدأ برنامج التدريب من السادسة صباحاً حتى الواحدة ظهراً، تتخللها استراحة قصيرة لتناول وجبة الفطور، وغالباً ما كانت تحتوي قطعاً من الكيك أو قليلاً من الفاكهة أو العصير والبسكويت. كنت سعيدة وأنا أتقدم الفرقة وأقوم بالدور الذي طالما حلمت بأدائه على خشبة المسرح.

أحببت أفراد الفرقة. فقد بدت الفتيات كالفراشات خفةً ورشاقة، وتمتّع الشبان المشاركون أيضاً في المسرحية بروح المسؤولية وروعة الموهبة.

استمر التحضير ستة أشهر. وكان قيس خلال تلك الفترة يتابع الجانب الإعلامي بالتعاون مع أصدقائه الصحفيين.

حين اقترب موعد السفر شغلني التفكير بعائلتي. ماذا لو علمت أمي أني سافرت لأجل العمل في المسرح؟ شعرت بتوتر وحزن وبدا القلق جلياً في عيني. وقفت أمام المرآة أراقب ملامحي وتغير حالتي وانكماشي الذي أدى إلى شحوب وجهي، لكن شيئاً في أعماقي رفض ما كنت عليه وأحسست أن كل ما فعلته في حياتي ما كان يوماً نابعاً من إرادتي ورغبتي. وهكذا اتخذت

قراري دون اللجوء إلى مدرّستي. كنت أكره أن أبدو ضعيفة أمام أقرب المقربين.

صادف توقيت السفر في أواخر شهر نيسان، ولا مبرر لقلقي إذ أن العودة من كندا ستكون قبل بدء امتحانات السنة الأخيرة.

لاشيء غير المسرح يروي ظمأ قلبي التوّاق إلى التعبير عن ذاتي وعن ولهي بتقديم تراثي لشعوبٍ تجهل لغة فنوني وجمالها.

لقد روت رقية ظروف المسرحية، وأصداء نجاحها في كندا. وكتبت في بداية الصفحة الأولى من المساحات البيضاء المتبقية من دفتر مذكراتي: "أرجوك، ديلارا العزيزة، تابعي تدوين الأحداث المحيطة بعالمك المسرحي، فلعلّي أقرأها في قادم الأيام".

أسعدني سفري ونجاحي والتفاف الجمهور حولي والتصوير وعبارات الإعجاب والإطراء. كان ذلك في البداية لكني عدت أتذكر أيام الحلم الغريب الذي رافقني منذ الصغر وصرت أسير بخطا واثقة نحو تحقيقه حتى صار حقيقة. فبدا زمن الأحلام البكر أكثر إغراءً وإغواءً كالخطوط الأولى لرسم لوحة يقيم سحرها في الخيال، ثم تتساقط أجنحة الخيال على اللوحة ريشة تلو الأخرى. وحين تنجز اللوحة تعود بنا الذاكرة إلى الخطوات الأولى للرسم.

بعد عودتي من كندا صار امتحان التخرج هدفاً آخر توجب علي اجتيازه بنجاح. ورحت أسابق الزمن وأدرس ساعات طوال لاستدراك ما مر من الزمن المسرحي المسافر في أصقاع الأرض والذي أبعدني عن دراستي.

انتهت مدة إقامتي في دمشق فماذا أفعل هناك بعد تخرجي؟

كانت فرحة أمي عارمة حين تلقت خبر تخرجي من الجامعة. قالت:

- الحمد لله، مدرسة القرية في انتظارك. أنت مدرسة الفرنسية الأولى في هذه الناحية. وثمة بشرى سارة لك ديلارا: البارحة زارنا عمك وزوجته، وهما يريدانك زوجة لابنهم الوحيد المهندس عبد الكريم. ما شاء الله، رأيت منزله. إنه في غاية الفخامة. كم أنت محظوظة يا ابنتي!

لم أُجب لأني أعرف جيداً أن ما من أحد يستطيع تغيير قناعات أمي وإيمانها المطلق بأن العالم خارج مملكتها أشبه بالجحيم، وأعرف أنها لا تقبل النقاش حين يتعلق الأمر بمصير إحدى بناتها. ولأجل أن أنقذ مصيري من حبها الخانق، وجدت نفسي لاجئة إلى المسرح بقلبي وعقلي.

7

في الصباح تركت صورة عن وثيقة التخرج ورسالة إلى عائلتي على طاولة الدراسة وأخذت الوثيقة الأصلية وعدة صور، وهويتي الشخصية واخترت من ملابسي أخفها وزناً، وغادرت البيت ومعي مبلغ يكفيني شهرين أو ثلاثة، فقد حصلت على مبلغ معقول بعد انتهاء العروض المسرحية في كندا.

سافرت إلى دمشق وتوجهت إلى مدينة الشباب. وضعت حقيبتي وجلست أفكر في الأيام القادمة، وقد تملكني الخوف من المستقبل المجهول.

عند الرابعة بعد الظهر اتصلت بعاتكة وطلبت مقابلتها خارج المنزل. تركت جوالي مقفلاً كي لا أفسح مجالاً لتواصل موجع مع عائلتي لكن الرسائل والمكالمات صارت تنهمر كالمطر على جوال عاتكة، وقد اضطرت إلى إخفاء الحقيقة حتى عن خالي، لأني رجوتها، ولأنها كانت مقتنعة بما أقدمت عليه. قالت:

- انتبهي , ديلارا , هناك احتمال أن يكلمك خالك من جوالي، لذا علينا أن نضع كلمة سر بيننا، نتواصل من خلالها، فتبقى أسرارنا محفوظة.

اتصلت بالأستاذ قيس. وقد أبدى استغرابه من إقفال هاتفي. قال:

- جاءتنا دعوة من اسبانيا لتقديم عروضنا في العاصمة مدريد ومدن أخرى ولكن، ماذا عن عائلتك هذه المرة؟ هل استطعت إقناعهم باختيار مستقبلك؟

قالت عاتكة:

- من الآن فصاعداً، صارت ديلارا ابنتي. أريدها أن تكون سعيدة ومتألقة وناجحة.

عدنا إلى التحضير للسفر من جديد. كان قيس يحاول أن يخفي قلقه بشأن أعماله. وحين بدأ التدريب. راح يوصينا بالعمل بمسؤولية، والتركيز على الإحساس في أداء أدوارنا.

ساد جو من المحبة بين أفراد الفرقة، فقد وجد قيس مفتاح الدخول إلى قلوب المشاركين في المسرحية وزرع روح المودة بينهم.

ولم يكن لدي رغبة في الكلام، وذلك لانشغالي بتأليف الرقصات وتعليمها لأفراد الفرقة.

كنت أتخيل جمهور الصالة. وأحاول أن أكرمه بفن رفيع يستحق أن يعيش زمن تألقه وإبداعه.

في أحد مشاهد المسرحية التي كتبتها وصاغها قيس على طريقته، تقف صبيةٌ على المسرح ترتدي زيّاً فلكلورياً وتقبض على

سماعة الهاتف، تحدث صديقتها في الشتات, وتسمع الموسيقى بصوت منخفض، ثم تقول:

- نحتفل اليوم بزفافنا. لقد خرج زياد من المعتقل.

تمسك سماعة الهاتف مرة أخرى وتحدث زياداً:

- تأخرت حبيبي ..

ويرن الهاتف بعد قليل لتتلقى نبأ استشهاد حبيبها.

صاحت:

- قتلك الأوغاد! أنا بانتظارك لنرقص على أنغام الدلعونا الفلسطينية التي تدربنا على أدائها ... دعوا الموسيقى تعلو ...

ويرتفع الصوت وترقص الصبية تماماً كما لو أن حبيبها يشاركها الرقص. ثم تدرك لحظة الحقيقة فتصرخ:

- آه يا عريس فلسطين! آه يا حبيبي، لقد انتظرتك زمناً طويلاً. قتلوك... لكنهم لن يقتلوا أحلامي. ستهدم يوماً مملكتهم المصطنعة، مهما دعّموها، وسجونهم السوداء ومعتقلاتكم العفنة... أيها الحاقدون، تباً لظلمات جحيمكم الآثم! سنعود لنطردكم من حقولنا ومن ديارنا ومن مقدساتنا. لن تنحني هاماتنا أبداً! ولتذهب مطامعكم وأوهامكم إلى الجحيم!

كان قيس يميل إلى الجدية. وبعد أداء كل مشهد كان يطلب منا أن نعطي تعليقاتنا مكتوبة على الورق وقد علمنا الموضوعية في التعبير عن آرائنا.

قال معلّلاً:

- يجب أن يؤخذ هذا المشهد بعين الاعتبار. فالرقص هنا ليس إلا انسياب الموسيقى في روح الراقصة. والجسد ليس إلا أداة تنقل وقائع الجمال السابح في عالم الروح، لذا أعدّه أحد أهم الفنون الجميلة.

كان كلامه موجَّهاً إليّ بالتحديد، فكنتُ أصغي إليه بجدّية تامة وانتباه شديد، وأنا أفكّر بالرقصة التي تلائم الموقف المطلوب.

8

طلب قيس مقابلتي في أحد مقاهي دمشق. التقينا في أحد البيوت الدمشقية القديمة والجميلة، وقد حوّله أصحابه إلى مطعم صغير، كل شيء فيه يوحي بالحميمية. قال بعد أن أخذنا أماكننا حول طاولة صغيرة، كأنها مصمّمة لعاشقين، وسط غابة من شجيرات الزينة الطبيعية ذات الأوراق المتعدّدة الألوان:

- عليك أن تتخلصي من رواسب الماضي وإلا تحوّلت حياتك إلى صراع يصعب عليك تجاوزه. ولا تنسي أن موهبتك نور دافق. وحرام أن تحجبه الجدران الحجرية وتصدّ شعاعه المرسل إلى القلوب.

في تلك الجلسة، تمنيت أن أبوح له بحبي وإعجابي. تمنيت أن أعانقه. لكن كيف، وقد نال صفة العم؟ والأهم من ذلك أنه الصديق الأقرب إلى خالي. كنت أحس بدفء مشاعره رغم اتزانه وصلابته. قلت له ملتفّةً على مشاعري:

- ما رأيكَ أن نجوب أنحاء العالم بمسرحنا؟

- لا شيء يبدو مستحيلاً أمام توثّب طموحك وموهبتك ...

قال ذلك ونظرتُه الحانية تسرح على وجهي لتقف عند عينيّ فأغضيتُ حياءً. ولكن يبدو أن حيائي زاد من تأجّج مشاعره، فأحسستُ بعينيه تقرآن ما ظهر من جسمي فوق الطاولة حرفاً حرفاً، بل تستمتعان في تلكّؤهما في تهجئة حروفه، وكأنهما لم ترياه يتثنّى على المسرح عشرات المرّات. باغتني قائلاً بصوتٍ بحّهُ التأثّرُ:

- ما أحلاكِ يا ديلارا!

فألفيتُني أهمس فجأةً وأنا أنظر إليه بعينين تعانيان من التخلّص من أواخر فلول الخجل:

- حبيبي!

لم يكد يسمع الكلمة حتى أدنى رأسه متجاوزاً نصف الطاولة، وسألني:

- ماذا قلتِ؟

- حبيبي!

سألني من جديد وهو يتطاول كطفل يتطاول ليحصل على لعبةٍ لطالما حلم بها:

- مَن؟

كان بوسعي أن أناور وأداور وأغمغم... لكن اللهفة التي قرأتُها في عينيه والشعاع المنبعث منهما ليخترقني، والرجاء المختبئ في صوته، وأشياء، وأشياء.... كل هذا جعلني أقول بصوتٍ كاد أن

يسمعه الجالسان إلى الطاولة المجاورة:

- ومن غيرك حبيبي؟

لمحتُ فرحاً مجنوناً يتراقص في عينيه المفتوحتين على اتّساعهما، وكاد يقفز عن كرسيّه ليعانقني، لكنني هدّأتُه ضاحكة:

- اجلس يا مجنون!

جلس بصعوبة وهو يقول:

- بل أنتِ حبيبتي وروحي! آه يا ديلارا، كم حلمتُ بهذه اللحظة! وكم انتظرتُها!.... سنوات وأنا أنتظرها، صدّقيني. منذ أول لحظةٍ رأيتُك فيها...

- أيها المسكين! أتعاني كلَّ هذه المعاناة، وبصمت! لن أسألك لماذا لم تسْعَ إلى رؤيتي منذ ذلك الحين، فأنا مسؤولة عن ذلك مثلك، ولكن المهم في نظري أننا بدأنا الآن وهنا.

* * *

غادرت فرقتنا دمشق متوجهة إلى اسبانيا في تشرين الثاني من عام 2004، وكنت أخوض أصعب الامتحانات وأخطرها، فأنا من اختارت اللجوء إلى عالم المسرح شغفاً، ليس لتحقيق نجاح في عروض تؤديها الفرقة، بل لصناعة ثورة في عالم المسرح (كما أتوق، على أية حال). وهناك في مدريد شق الشرق طريقه إلى اسبانيا ناثراً إبداعه وسحره المجنون. فهامت القلوب العاشقة برقص المعابد، والطقوس الشرقية القديمة.

اجتازت الفرقة المرحلة العصيبة، وحققت نجاحات باهرة. وكان قيس ينصح الجميع بتوفير جزء من المال تحسّباً للظروف المجهولة.

أمضينا قرابة الشهر في اسبانيا. قدمت فرقتنا عروضاً تمت بنجاح وكان الحضور يتزايد مرة تلو الأخرى.

في آخر عرض طلبتُ من قيس أن يحل محلَّ سلطان الذي يشاركني بطولة المسرحية، فقال متغابياً أو متبارداً أو مذكّراً بنفسه، لستُ أدري:

- لماذا يا ديلارا؟ فهو يؤدّي دوره بطريقة رائعة! ألم ترَي إعجاب الجمهور في نهاية كل فصل؟ ثم إن سلطان شاب في مثل سنك لذا يجد قبولاً أوسع في دور حبيب ديلارا. وفي الواقع أرى أن سلطان يحبك من كل قلبه. لاحظت نظراته وإعجابه بك.

ولكني قلت بحزم:

- أستاذ قيس، ولكني أحبك أنت. أحبك! كم قلتُ لكَ إني أحببتك منذ رأيتك للمرة الأولى في منزل

خالي، أتفهمني؟ كنت أرسمك في أحلامي منذ طفولتي، طبعاً قبل أن اسمع باسمك أو أعرفك. وبعد أن عرفتُك صرتَ حلمي الوحيد الذي أتوق إلى تحقيقه بلقائك.

كان قلبي يخفق بشدة ويداي ترتعشان. لم يُجب بكلمة واحدة. كان ينظر إلي وعيناه تمتلئان بريقاً لم أره في حياتي. أحسست أن عينيه تحملانني وتطيران بي إلى عالم وردي. تمنيت أن يأخذ يدي بين يديه الصلبتين. كانت روحي تذوب وشفتاي تتحرّقان. كنا نقف خارج مبنى الفندق على مرأى من المارة. وقلبي يمارس القبل الحارة والحب بكل أسراره.

قال:

- لقد حققت جزءاً من حلمي في مجال المسرح. لكن أن أظفر بقلبك فهذا أمر أبعد من الحلم يا ديلارا. صدّقيني لقد حملتك في دمي وأنتِ مراهقة غرّة، تريد أن تلفت انتباه الآخرين إليها وإلى موهبتها. لقد خبأت طيفك منذ ذلك اليوم المبارك يوم سافرت لزيارة قريتكم الجميلة الوادعة بغاباتها التي حملت سحر عينيك وروعة جمالك.

نزل قيس عند رغبتي. فسهر قبل العرض بيومين وغيّر جزءاً من المسرحية فصار دور قيس أن يقوم بالعزف على القانون وسلطان يشاركني الرقص فيتعب سلطان ويتبادلا الأدوار. رقص كلانا بجنون الحب وسحر اللهفة. رميتُ بأوراق موهبتي كلّها على خشبة المسرح فدوى تصفيق لم أعهده من قبل.

في الليلة نفسها، وفي ساعةٍ متأخّرة منها، دعاني قيس لتناول العشاء في مطعم الفندق الذي ننزل فيه. طلب كأساً من الويسكي، عبّها بسرعة، ثم طلب كأساً ثانية. أنا أعرف أنه يشرب، ولكنّ ليس بهذا الشكل. احمرّ وجهه، وتلعثم صوته قليلاً. حاولتُ أن أنبّهه لكنّه نظر إليّ، نظر إليّ طويلاً، ثم قال:

- للمرّة الأولى، تهتمّين بي كرجل من لحم ودم، هل لاحظتِ ذلك؟ ترى ماذا حدث؟

خمّنتُ ما يرمي إليه، لكني وجدتُ أن من المناسب أن أقول:

- قيس، حبيبي، كفّ عن الشرب وحدّثني عمّا تشاء، أرجوك. حرام عليك، ارحم جسمك! تدريب متواصل وتمثيل، وسهر، وها أنتَ تشرب كثيراً. إني خائفة عليك.

يبدو أن كلامي أثار حفيظته أكثر، وأجّج مكنونات صدره، فقال في شبه صراخ:

- أنتِ آخر من يحقّ له التحدّث عن الجسد، أقصد عن صحّتي.

أشحتُ بوجهي عنه لعلّ ذلك يهدّئ من روعه قليلاً، وتشاغلتُ بالنظر إلى أطباق الطعام الذي لم يُمس. ومع ذلك أضاف على الوتيرة نفسها:

- سنة تقريباً، ونحن عاشقان، نتساقى كؤوس الغرام، نظرياً، ونتبادل النظرات واللفتات،

وكلمات الحب، ووو....لم تقولي لنفسكِ مرةً إن لهذا الجسد عليّ حقاً. أنا لا أقصد جسدي أنا فقط، بل جسدك أنتِ أيضاً. ألا تشعرين بحاجة إلى دفء إنساني؟ كم مرةً حاولتُ أن أضمّك ورفضتِ؟ والقبل عندك ممنوعة، واللمس ممنوع..... أية امرأةٍ أنتِ؟ لقد جعلتِني بتصرّفاتك أفشلَ العشّاق. جعلتِني مراهقاً سخيفاً يتوق إلى لمسةٍ من يد حبيبته لينام عشر ليالٍ على ذكراها...

وضعتُ يدي على يده وقلت:

- حبيبي، قل ما تريد، ولكن بصوتٍ خافت. لقد أثرتَ انتباه أعضاء الفرقة وبقية الساهرين... أرجوك!

- أهذا كل ما يهمّك، أن لا أثير انتباه الساهرين؟ وهذا الجسد الذي يذوب ألا يثير اهتمامك؟ ألا تفكّرين أن الروح التي تسكنه تبلى معه؟ الناس يحبّون لكي يبدعوا، وأنا قيس الحبّ أفحمني...أفحمني.

نظرة قيس المتوقّدة أبداً، أتتني كسيرةً، حزينة.... وضع نقوداً على الطاولة. نهض. مشى متثاقلاً. فكّرتُ أن أمشي بجانبه لأسنده، لكنّي خفتُ من ردّة فعله. تابعتُه بنظري حتّى غيّبه باب استراحة الفندق.

9

في اليوم التالي لم أر قيساً. لا أدري أين خرج. كان هاتفه مقفلاً. جلست أفكر في كل ما حصل بيني وبينه، وقلت: عليَّ أن أتخلص من استهتاري وطيشي فالأستاذ قيس رَهَنَ حياته للفن والكتابة والسفر.

خرجت من غرفتي وتوجهت إلى مقهى الفندق. رأيتُه جالساً مع رجلين في المقهى. جلست أحتسي فنجاناً من القهوة بمفردي، وأكتب رسالة لأرسلها إلى جوال عاتكة. بعد قليل غادر الرجلان المقهى. وبدأ قيس يقلّب أوراقاً كانت بين يديه. تمنيت أن يلمحني ويأتي للجلوس معي، لكنه أجرى مكالمة على جواله ثم خرج من المقهى. تذكرت أني قد رأيت الرجلين على شاشة التلفاز، في لقاءات سياسية، وأن أحدهما ينتمي إلى إحدى المنظمات الفلسطينية.

اخترت الوحدة والتأمل. كنت جدية في تعاملي مع أفراد الفرقة ولم يكن لدي ميل للتسلية كما تفعل قريناتي من الفتيات اللواتي يجتمعن ويمارسن لعبة الحظ من خلال أوراق اللعب. كنت أمارس التأمل وألجأ إلى القراءة في أوقات فراغي فأنا خرجت من قريتي و تركت عائلتي، وعليَّ أن أثبت أهمية المجال الذي اخترته. كنت أرى في التأمل سر استمرارنا في النجاح.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً حين رن جوالي معلناً عن وصول رسالة. كان قيس من أرسلها. كتب فيها:

"في الليل أفتح نافذة الحلم....

فيتكشف طيفك كومة دفءٍ ونور

وسرعان ما تخرج الروح من الجسد

لترنم أنشودة الجمال المقدس.

في الليل أنت لي".

أي شاعر أنت يا قيس !!

لم أستطع الانتظار، ضغطت زر اتصال:

سمعتُه يهمس:

- أحبك.

- أستاذ قيس يكفي هذا. أتمنى أن تظل مشاعرنا في حدود الإحساس لنبقى دائماً على موعد. نستطيع أن نتجاهل تلك الأحاسيس فتتحول إلى إبداع. أحبك قيس. أحبك وكفى. تكفي هذه المشاعر لتجعلني أغمض عيني اللتين تحملان طيفك وتستقران في إغفاءة لم

أعرف مثيلاً لها من قبل.

في العرض الأخير طلبت من قيس أن يجلس مع جمهور الصالة، فقد توقد جنون موهبتي لأجله.

وفي ذلك اليوم طلب الكثير من سيدات ورجال الأعمال التحدث إلي. فاعتذرت، وعدت إلى الفندق.

وصلت رسالة من قيس على جوالي كتب فيها:

"كما اختزلت العناقيد سر الكرمة، اختزل جسدك عذوبة الموسيقى، وسحر الرقص، ولذع الشهوات.

ديلارا، لا يوجد نعيم في الدنيا أحلى، ولا ألذ مما أعيشه في نعيم حبك واشتهائك.

يا إلهي !!! ما أصعب هذا ؟ صرت أفكر. كيف لذع جسدي شهواته، وأنا أبحث عن انسجام الموسيقى مع الروح؟"

لا أدري لِمَ صدمتني كلمة "اشتهائك". فأنا تكفيني مشاعر الحب الدافئة.

10

في الصباح كنا نحزم حقائبنا للعودة إلى دمشق. آنذاك جاء أحد موظفي الفندق يحمل باقة ورد بألوان الأبيض والبنفسجي، وقال:

- مدموزيل ديلارا، أحضرتْ هذا الورد سيدة، وهي تقول إنها تريد مقابلتك.

غريب كم كنت أخشى المجهول ومع ذلك كنت أغوص في أعماقه. تساءلت عن سبب مجيئها وأنا في طريقي لمقابلتها.

كانت تنظرني في مقهى الفندق. تحتسي القهوة وتدخن سيجارة. بدت جذابة وأنيقة ذكرتني بالفنانة وردة الجزائرية بابتسامها التي تركزت في عينيها أكثر ما ظهرت على ثغرها.

قالت باللغة العربية:

- أنا فخورة جداً بأدائك الرائع وأرجو ألا تخيبي أملي في ما سأطلبه منك.

انتظرت .... لم يكن لدي أي معلومات عن الغاية التي قدمت لأجلها.

قالت:

- لدي معاهد لتعليم الرقص للفتيات موزّعة في معظم المدن الإسبانية. وكلي أمل أن توقعي عقد للعمل كمدرّسة للرقص الفلكلوري الذي قمت بأدائه في المسرحية.

قلت:

- لا أدري ماذا أقول. نحن فرقة مسرحية نعمل معاً. وقد سافرنا إلى كندا. ولدينا جولة أخرى إلى إيطاليا.

طلبت أن أدون لها عنواني ورقم جوالي، وكررت تمنياتها بموافقتي. وقالت:

- لدينا الكثير من الصبايا اللواتي يهوين الرقص الراقي، وأنا واثقة من أن إبداعك في هذا المجال بلا حدود. وقد علمتُ أنكِ درستِ الأدب الفرنسي، فأنتِ تعلمين إذن مقدار ولع الغرب بأجواء الشرق الساحرة، ولاسيّما أجواء ألف ليلة وليلة، وكذلك الموشحات التي وُلدت هنا وسافرت مع العرب إلى الشرق، فأرجو أن تُعيديها إلى مهدها بعد أن تُضفي عليها بعضاً من ألقِك لتسحري بها الجمهور الإسباني خصوصاً، والأوربي عموماً.

صمتت قليلاً، ثم أضافت لتسدّ عليّ سبل التملّص:

- وبالنسبة للأجر فأنتِ تحدّدينه. أما من ناحية الأسفار، فيمكنك تحقيق طموحاتك في السفر كما تسافرين عادة.

فكّرتُ مليّاً بعرضها. هذا ما أتوق إليه يأتيني طائعاً، فماذا أنتظر لأعلن موافقتي مباشرة؟ لستُ أدري، فكّل ما قالته عن ألف ليلة وليلة والموشّحات كان يراودني كفكرة جنينية، وها قد آن الأوان ليولد. ومع ذلك ألفيتُني أقول بحيادية الخبيرة:

- امنحيني فرصةً للتفكير.

يبدو أنها استشفّت الموافقة، فابتسمت، ثم ودعتني بقبلتين وقالت:

- كلّي أمل بأن يتوَّج تفكيركِ بالموافقة، لتعودي إلى اسبانيا مرة أخرى.

فكرت بذلك العرض الذي قدمته السيدة: إن العودة إلى اسبانيا تعني ابتعادي عن عاتكة، الرابط الوحيد بيني وبين عائلتي. يا إلهي، ماذا فعلت لأُحرم من زيارة قريتي وأجول في حقولها وجبالها وبساتينها وأقطف توتاً وعنباً ورماناً، وأنعم برائحة ترابها ومنظر سنديانها وزيتونها؟ راودتني تلك الأفكار وأنا عائدة إلى دمشق.

جاءت عاتكة لمقابلتي في مكتب قيس. قبلتها. بكيت... ارتميت في حضنها. سألتها عن أمي وعائلتي.

قبلتني ألف قبلة، وسرحت شعري بيديها الحنونتين، ثم قالت:

- أمك تعرف أني تبنيتك، هي وتطمئن عليك من خلالي. لكنها لا تجرأ على مصالحتك خوفاً من إظهار ضعفها وسط عائلتها المتشددة. وقد شعرت أنها فخورة بتمردك، فأنت تجاوزت ما لم تستطع تجاوزه. والدتك لم تجرأ على اختيار شريك حياتها، إذ لم يكن لديها جرأة التعبير عن رأيها.

كانت عاتكة قد بذلت جهداً بالغاً لإقناع خالي بأن التحاقي بالمسرح ليس إلا حقاً من حقوقي، واصطحبتني معها إلى منزلها. عاتبني. ثم بدأ يقدم بعض الوصايا التي يقدمها الآباء أو الأخوة الكبار. فكرت بالعودة إلى اسبانيا وأخبرت عاتكة عن رغبتي في السفر، فأثار قراري دهشتها.

كان قيس قد تلقّى دعوة إلى إيطاليا بعد عدة عروض أقمناها في دمشق وبيروت.

11

قبل سفري زرت قيساً في مكتبه. كان جالساً خلف مكتبه يقرأ إحدى الجرائد. بدا لي كأنما يقرأ مقالاً استفزازياً وأمامه جرائد مبعثرة على سطح مكتبه.

قال:

- إسرائيل تتوسع...تبني المستوطنات...لقد أخمدت الانتفاضة الأولى والثانية، ودمّرت جنين وحاصرت المقاطعة، وستُخمد ثلاثين انتفاضة وتدمّر باقي المدن الفلسطينية ما دام الزعماء العرب يتفرجون، متمسّكين بكراسيهم ومناصبهم الخلّبيّة.

ولمّا احتفظتُ بصمتي لأنني كنتُ أفكّر بأمرٍ آخر يتطلّب مني التركيز الشديد والجرأة، طوى الجريدة، ثم قال بهدوء:

- ديلارا، أنت الحقيقة الوحيدة الجميلة في العالم. تعالي أخبريني ماذا فعلت البارحة؟ هل قرأت الرواية؟

- نعم قرأتها بتمعن. وخلاصتُها أننا نحن الذين نصنع الأمل كما ترى البطلة.

صمتّ قليلاً، ثم أضفتُ وقلبي يخفق:

- لقد جئت لأودعك.

- تودّعينني؟! هل حصل شيء لأحد أفراد عائلتك، لا سمح الله؟

- لا يا قيس، لكني أريد أن أعود إلى اسبانيا.

- لماذا؟ أليس غريباً أن تتخلي عن المسرح في أوج ازدهاره؟ قولي لماذا؟

- حبيبي قيس، ليتني لم أعترف لكَ بحبي. ليتني طويت صفحة مشاعري وعشتُ متعة الحب الدفين، فأنا لا يغريني البوح بل يأسرني الطريق إليه. أنا أرى أن سلوك الطريق أكثر إثارة وإغراءً ومتعة من بلوغ الهدف.

بعد لحظات من الصمت الثقيل، قال بتأثّر:

- كان قلبي يحدس بخطرٍ لم تكن معالمه جليّة، لكني كنت أشعر به قريباً مني. أعرف ذلك. أعرف طبيعتكِ الهاربة. كما أخبرتني عاتكة ... ولكن ماذا أقول لكِ؟ .... على كل حال، ليس بوسعي إلا أن أتمنى لك التوفيق وأرجو أن تكوني سعيدة. لكن لا تتسرعي، واتركي دائماً مساحة للتفكير.

- لا أدري لماذا أشعر برغبة في السفر.

- ديلارا ... المسرح في أوج تألقه حرام أن تهجريه.

سحبت كرسياً وجلست بجانبه، وقلت راجية:

- لا تحقد عليّ يا قيس، فالطموح يسري في عروقي! أرجوكَ، قل أي شيء أحمله زاداً في سفري.

نظرت إلى يديه المتوترتين. أمسكتُ بأصابعه التي بدت ضعفي أصابعي، ثم قلت:

- أحبك قيس!

فابتسم وقال:

- كيف يكون الحب؟ بالسفر والهروب!

طلبت منه أن نستمع معاً إلى معزوفة لطالما أحببناها نحن الاثنين. أخرجتُ القرص المدمج من محفظتُي، ووضعته في قارئ أقراص صغير موجود على مكتبه. ظنّ للحظةٍ أني أريد أن أُسمعه المعزوفة، فهمّ بإخباري أنه يحفظها، لكنه فوجئ عندما ابتعدتُ قليلاً عن مكتبه، رفعتُ يديّ ورحتُ أرقص على أنغامها مغمضة العينين.

رقصت لقيس المتواري في كياني... رقصتُ طويلاً دون أن ينالني التعب. فقال بإعجابٍ بادٍ:

- جنية أنت؟ ....إبداعك نبيذ سحري ..حرام أن يظل معتقاً في الخلايا.

وقفت خلفه وعانقته فسحبني بهدوء، وأجلسني في حضنه. بكيت بحرقة فانهمرت دموعي على وجهه ويديه.

قال وهو يهمس في أذني:

- أحبك ديلارا.

أغمضت عيني. أحسست بأصابعه تلامس وجنتي وشفتي، وبأنفاسه تقترب من أذني. وضعت يدي على عيني لأمسح دموعي الساخنة .... قبل يدي ووجنتي. راح قلبي يخفق بشدة ويداي ترتعشان. وضع يده خلف عنقي فتدلى شعري حتى كاد أن يلامس الأرض. ضمني إلى صدره، إلى عطره الممزوج برائحة الحب والرجولة.

أحسست بأنفاسه تدنو من شفتي، وأخذت شفتاه تداعب شفتي السفلى وتغيبها بين شفتيه. لحظات جنون كنت أخشاها وأتمنى حدوثها في آن.

وحين التقطت أنفاسي، أخذت حقيبتي واتجهت صوب الباب دون أن أنظر خلفي. لكن قيساً أسرع إلي وقال:

- حبيبتي، اسمعي صوت الحب ودعينا نتزوج. ليست إلا دقائق ونصبح أمام القاضي. أحبك ديلارا ولا أستطيع العيش من دونك.

عانقني وهو يقول بين ثنايا القبل:

- ما أجمل سمرة شفتيك ولون بشرتك! ما أروع وجهك وجسدك! هيا بنا إلى المحكمة لنصبح زوجين.

قلت:

- قيس، أحببتك بجنون وما أزال، لكني لا أفكر بالزواج. أخاف أن يبعدني عن عالم المسرح.

بدا جذاباً وهادئاً. سحرني افتتانه بجمالي الذي كان يرى معالمه بقلبه. اجتاحتني رغبةٌ جامحة بعناقه من جديد فرحت أداعب شعره بيدي، فطوّقتْ يداه خصري والتصق جسدي بجسده شعرت بشيء من الخدر يتغلغل في عروقي. أهو الحبّ أم الإغواء؟ لستُ أدري. في لحظةٍ توهّجت لديّ رغبةٌ في أن أترك لديه زاداً من الذكريات يرجع إليه كلّما جُنّ ليله. وقفتُ في وسط الغرفة وعيناه تتنزّهان على سائر جسدي. قرأتُ فيهما الاستغراب والرغبة. بدأت بنزع قميصي. الدهشة تنتقل من عينيه إلى كامل وجهه. ثم نزعت بنطالي، فاندلعت الرغبة في عينيه. أزعم أن كلّ مشاعر العالم كانت تصطرع بداخله في تلك اللحظة. رفع نصفه الأعلى وأخذ يُمعن النظر، يرصد كلّ حركةٍ وهو عاجز عن توقّع التالية. بحثت بهدوء عن حقيبة يدي التي تكوّمت عليها ملابسي، وأخرجت قرصاً يحوي أجمل موسيقى الرقص الشرقي التي أتدرّب عليها عندما أكون بمفردي. اخترت موسيقى "ليلة حب"، وكأن عبد الوهاب أبدعها قبل نحو أربعين سنة خصّيصاً لنا نحن، قيس المندهش وأنا المُغوية. ذهبتُ إلى محرّك أقراص موضوع على طاولة صغيرة. ووضعت القرص، وأدرتُ المحرّك. قيس في مكانه لا يريم، كل ما يفعله هو أن دهشته أخذت تتفاقم حتى طغت على حدود الذهول. هل أُغويه أكثر؟ لا، يكفيه أن يرى كل عضلة من جسدي تتمايل، تتكلّم كلاماً جديداً يعجز عن فهمه. لطالما امتدح مهارتي! سوف أُريه اللحظةَ أنه كان محقّا فيما قال، وكان طَموحاً فيما اشتهى. بدأت الموسيقى تصدح، وراح جسدي يتثنّى. ببطءْ أولاً، ثم تدرّجت في السرعة مع الإيقاع المتصاعد. كانت عيناه المسكينتان ترتاحان على صدري الناهد كلّما تعبتا من التجوّل على أنحاء جسدي. آليتُ ألاّ أغادره ببصري لأرصد كل انفعال من انفعالاته، وحين سارعْتُ من حركاتي أحسستُ بأنفاسه تتسارع. وحين صار جسدي يتفصّد عرقاً، تصبّب جبينه عرقاً، وشخصَت عيناه، وأخذ يضغط على شفتيه. شفتاه اللتان أحرقتاني منذ دقائق، ها هما تحترقان الآن، بمفردهما. وأصابعه التي تنزّهت على مناطقي الساخنة، ها هو يعتصرها، أتراه يقطّر منها النشوة التي عرفتها؟ ليتك تتكلّم يا قيس! ليتك تبدي إعجابك بالكلام، فالكلام العذب أجمل ممارسة للحب!

أنا الآن أنثى بامتياز! أمارس أنوثتي مع رجلٍ كلّ ذنبه أنه أحبّني حتى الجنون! شعرتُ برغبةٍ في الإمعان في تعذيبه إغواءً، فمشيتُ بكل هدوء إلى محرّك الأقراص وأعدت وضع القرص المضغوط.

تخيّلتُ نظراته تثقب ظهري، لم أكترث، بل عدت إلى الرقص من جديد بأسلوب مختلف تماماً، أكثر سرعةً وإثارة. في تلك اللحظة تفكّك جموده... ليته يمارس رجولته على أنثى كلّ ذنبها أنها جميلةٌ تتوق إلى الانعتاق من كل قيدٍ. ربما لم يعد يحتمل مزيداً من التعذيب، فطار حبّاً إليّ وطوّقني بكل قوة، وحين حاولت التملّص من يديه مُمعِنةً في الرقص، ركض إلى محرّك الأقراص وأخذ يضغط الأزرار بعصبيةٍ بادية، فلم تصمت الموسيقى، فما كان منه إلا أن نزع السلك من المأخذ بكل قوة، وعاد إليّ بوجهٍ يستعصي عليّ فهمه من فرط المشاعر التي تصطرع على مسرحه.

على الرغم من صوت أنفاسي المتلاحقة، أتاني صوته متهدّجاً وقد قطّعه التأثّر:

- إني أسمع صهيل رغباتك.

فقلت له وأنا نصف كاذبة-نصف صادقة:

- لا ... ليس لدي رغبات فأنا أتوق إلى المسرح. ولقد تركت عائلتي لأهب حياتي للخشبة....

قال:

- أنت مهرة جامحة في براري الخيال. اصهلي واجمحي حتى تتفصد عروقك وأنا في انتظارك، في انتظار رغباتك وشلال موهبتك الهادر.

أحسست بصفع كلماته وأنا أرتدي ثيابي. ربما أزعجتني ثقته بنفسه! أو ربما صفعني لأنه لم يبذل كل ما يستطيع لإبقائي! أتمنّى أن يُبقيني إلى جانبه ولكن دون رجاء. بالقوّة؟ لا، لن أسمح للأنثى التي كنتُها منذ لحظات أن تضعف. أنا أنثى بتَوْقي وبانعتاقي. أبحث عن الحب توأماً لإبداعي وليس بديلاً عنه. تناولتُ حقيبتي ويدي تمشط شعري. شيّعني إلى الباب دون أن ينبس بكلمة. نزلت مسرعة. حجبت عيني بنظارات داكنة، وسرت في شوارع دمشق، أودع رائحة الحب والياسمين. قلت في سري: آه يا جدتي سامحيني. هل أحببت يوماً ورقصت وجننت كما حصل لي؟ حين أصبح في مثل سنك ربما أقدم وصايا: تبدأ بكبح مشاعر العاطفة التي تنطوي على نتائج مدمرة. فلو احتفظ قيس بمشاعره لما هجرت مسرحه وهو في أوج تألقه.

12

سافرت إلى اسبانيا تاركة فيض الذكريات يتراقص في خيالي ويهرب من مكان إلى آخر.

كانت عاتكة مدرستي الحبيبة تتصل وتتابع أخباري.

أقامت مديرة المعاهد وكان اسمها نازك كابريانو حفل تعارف حضره عدد كبير من الفتيات والأمهات.

كان العمل في معاهد الفتيات رائعاً. فتيات ناعمات كالفراشات. تعلمن خطوات الرقص بعد تشرب الموسيقى. وتم اختياري لأكثر الفتيات موهبة في مجال رقص الفلكلور والموشحات وملأت أصداؤها أنحاء اسبانيا كلّها.

وتناقلت أخبارها وسائل الإعلام فصارت الفرقة تتلقى دعوات من الجاليات العربية للسفر إلى كندا واستراليا.

حين سافرت إلى كندا، التقيت رقية هناك. كنت في شوق للقائها أحسست أنها قريبة إلى قلبي، كأني لم أغب عنها. حضرت كل الحفلات التي أقمناها. دعتني إلى منزلها. وجلسنا نستعيد الماضي. دونت رقية كل الحكايات. قالت وهي تفتح دفتراً قديماً:

- أتعلمين ديلارا؟ لقد علمتُ من خلال مكالماتي مع قيس أنه ذاق بعضاً من حلاوة الحب الذي منحتِه إياه وكثيراً من مرارته، وسرعان ما خرجتِ من حياته كطائر أغواكِ جماله، وحين صرتِ على مقربة منه فرش جناحيه وطار بعيداً.

كانت فرقتنا ستغادر كندا إلى استراليا وكانت رقية تحضر نفسها للسفر إلى دمشق.

تلقيت دعوات من محطات تلفزيونية لإجراء مقابلات.

قبلت دعوة إحدى المحطات وكنت أحترم المذيع الذي يدير الحلقة. قدمني: راقصة المعابد والطقوس الشرقية القديمة.

اتصلت عاتكة وأخبرتني أنها شاهدت المقابلة. وأنها فخورة بالنجاح الذي حققته فرقتنا.

وقبل أن تنهي المكالمة قالت:

- إليك خبر بمليون جنيه.

قلت بلهفة:

- هيا أخبريني.

- منذ يومين زارنا أخوك وابنته. ما شاء الله صارت صبية جميلة. هل تعلمين أن ابنة أخيك

دخلت المعهد العالي للفنون المسرحية بتشجيع من والديها؟

قلت:

- ولله في خلقه شؤون!

* * *

في أحد مسارح مدينة روما. قامت فرقتنا بتقديم عروض رقص بالتعاون مع فرقة موسيقية تعزف موسيقى شرقية. كان العزف يتناوب بين الغيتار والناي فتتبع الموسيقى من رحم الأحاسيس المرهفة والمواهب المدهشة. وقد قام بالعمل على المشاركة بين الفرقتين شاب لبناني يعمل منسقاً لحفلات المسارح.

راقبت عازف الناي، لعلّي أكتشف أنه يوسف. ظننت أنه الوحيد في العالم الذي يملك ذلك الإبداع الفريد. لكن الشاب بدا أصغر من السن المفترضة ليوسف. ومع ذلك سألته عن اسمه فقال:

- اسمي دانيال.

- أعرف عازفاً مبدعاً اسمه يوسف.

فضحك دانيال وقال:

- إنه أستاذي انظري إلى الأستاذ يوسف.

- من فضلك دعني أتحدث إليه بنفسي.

كان يوسف يداعب بأصابعه أوتار الغيتار فتخرج ثرثرةٌ نغميةٌ جميله. ناديتُه من بعيد:

- أستاذ يوسف!

نظر بسرعةٍ إلى مصدر الصوت، وكأنه يتساءل: تُرى من صاحبة هذا الصوت الأنثوي التي تناديني باللغة العربية؟

- أتذكر سنديانة المنحدر حيث كنت تعزف الناي؟

نظر إلي وقد اتسعت حدقتا عينيه، وقال متسائلا:

- أنت من تلك البلدة، أليس كذلك؟

- أنا قريبة الدكتور علي.

- كيف؟ متى ؟ أين ؟ يبدو أن القصة تحتاج إلى شرح طويل. ولن يطيب الشرح إلا على مائدة الغداء الذي أدعوكِ إلى تناوله في مطعم قريب.

في المطعم، سردت له القصة الكاملة التي أوصلتني إلى روما. فقال:

- الآن أحس بتلك الغصة التي أخرجتني من قريتي تذوب كقطعة سكر.

ثم ضحك وأضاف:

- أنت قوية ورائعة. سنلتقي دائما. لن أدع جوهرة القرية تضيع مني.

تبادلنا أرقام الهاتف وكل وسائل التواصل.

بعد ذلك بوقتٍ قصير، عاد يوسف مع فرقته إلى بيروت حيث يقيم ويعمل في تأليف وتدريس الموسيقى. وعدت إلى اسبانيا.

لم تكن الأماكن تعنيني. في دمشق كان لي وطنان: تلك المدينة الرائعة والموسيقى. وحين أسافر أحمل دمشق في قلبي وتصبح الموسيقى وطني الأوسع والأجمل.

اتصلت بالسيدة عاتكة فور وصولي إلى مدريد. كنت قلقة وخائفة. ظننت أن لقائي بيوسف ولّد لدي حنيناً إلى الماضي. إلى أمي وقريتي ودارنا الرحب. سألت عاتكة عن أمي وأخبار صحتها.

سألتني بصوت مرتجف:

- متى ستأتين إلى دمشق؟

- عاتكة، أرجوك أخبريني عن أمي.

- كوني قوية ديلارا. أمك تعبت ونقلت إلى المشفى.

- أرجوك عاتكة قولي الحقيقة.

سمعتُها صوتها تُجهش بالبكاء. اشتعلت نارٌ في قلبي فسألتُها:

- عاتكة، أمي ليست في المشفى، أليس كذلك ؟

- أنا في انتظارك ديلارا.

رميت هاتفي والتفت الفتيات حولي. صرخت: أمي يا حبيبتي! ليتني كحلت عيني برؤية وجهك. كانت اللحظات الأصعب والأقسى في حياتي. تذكرت فستانها المعلق على الجدار وقد علقت به بقايا العجين. إذ كانت تلبسه وهي تقطع العجين أقراصاً، ثم تذهب إلى التنور، وسرعان ما ألحق بها وأتمسك بفستانها وألتف وأختبئ، فتصيح: الفستان متسخ بالعجين ابتعدي ملابسك نظيفة.

- آه ما أصعب اليتم!

قالت إحدى الفتيات وهي لبنانية الجنسية:

- مدموذيل ديلارا، كنت في التاسعة من العمر حين توفيت والدتي وأختي الصغرى. كانتا تزوران جدتي في قانا حين وقعت المجزرة المشؤومة. إنا لله وإنا إليه راجعون.

جاءت مديرة المعاهد و قدمت تعازيها وساعدتني في إجراءات السفر.

كانت عائلة الدكتور علي في انتظاري في المطار. ركبنا السيارة بصمت وانطلقت بنا إلى منزلهم. قلت:

- أريد أن أزور قبر أمي.

قالت عاتكة:

- علينا أن نسافر باكراً كي نصل إلى هناك فجراً.

كان الطريق طويلاً والأشجار الصغيرة تميل مع الرياح، والحجارة تملأ المساحات المقفرة على جانبي الطريق بين دمشق و قريتي. بدا موحشاً و كئيباً.

تذكرت كم كنت أبكي على الحجارة لأنها تنام وحيدة، إذ كنت أصدق الحكايات التي كانت تحكيها لنا جدتي: أن الحجارة هي في الأصل بشر ارتكبوا خطايا فعاقبهم الله بسبب خطاياهم وحولهم إلى حجارة.

13

وصلنا عند الخامسة صباحاً. كان قبر أمي مفروشاً بالرياحين وإلى جانبها مبخرةٌ ما تزال رائحة البخور تنبعث منها. بكيت بحرقة وتخيلت أن روح أمي ما تزال تحوم فوق القبر لتسلّم علي قبل أن تصعد إلى السماء. أحسست بيد تلامس شعري. في البداية لم أعرفها من خلال غشاوة الدمع. كانت أختي. مدرسة الرياضيات. قالت:

- كنت متأكدة أنك ستأتين.

عانقتني وبكت بمرارة وحرقة، وهي تقول:

- آه يا أختي يا زينة الصبايا. كم قسوت عليك؟ أنا سبب خروجك من القرية. والله يا أختي كنت جاهلة. لم أقرأ سوى منهاج الرياضيات. ولم أعلم أني بالغت في الخطأ حتى جاء مغترب من أهل القرية وأخبرنا أن مدارس الرقص تملأ أنحاء العالم المتطوّر إذ يستخدم كعلاج للأمراض النفسية والجسدية. أرجوك أختي عودي إلى القرية و سامحيني.

ولّما كنتُ لا أحمل في قلبي إلا الحب لعائلتي. وعدتها بزيارة في زمن قريب. ثم ودعتها وحملتها سلامي لولديها زين ومانيا فاستغربت معرفتي بأسمائهما وعرفت أن السيدة عاتكة تولت رعايتي في الغربة.

انطلق بنا السائق إلى منزل السيدة عاتكة. وهناك وقفت على شرفة منزلها المطلة على أرض الحصيد.

تذكرت ذلك اليوم الماطر والخراف الصغيرة التي كانت تملأ الأرض مرحاً. بدت سنديانة المنحدر صامدة عاتية. سمعت صوت أمي يرن في ذلك المدى حيث غرست يداها وحصدت وقطفت لنا ثماراً لم تكن تطالها أيدينا الصغيرة. في كل شبر لنا خطوات وذكريات.

كان الفلاحون يحملون غراساً ومعاول ويهبطون المنحدرات ومعهم الزاد والماء.

تمنيت أن أرى ثياب أمي وأشم رائحة فساتينها. سمعت رنين جوالي. كان يوسف. قال:

- أنا في دمشق. أين أنت ؟

أعطيت عاتكة هاتفي لتكمل حديثي ليوسف بسبب اختفاء صوتي.

قالت:

- سننطلق اليوم إلى دمشق ونلتقيك في منزلنا.

سافرنا عند الظهيرة. كان الطريق منحدراً ومطلاً على سفح مغروس بأشجار التوت تطل فروعها وأغصانها الخضر تعلوها وتنتشر بين الأوراق حبات توت تعتصر تحت أشعة الشمس بقايا

أمنيات.

وصلنا إلى دمشق عند الرابعة بعد الظهر وقد خارت قواي، ولم أرَ مفراً من النوم استيقظت عند السابعة كان الدكتور علي يستقبل قيساً .. قالت عاتكة وقد أفاقت لتوها من النوم وقبلتني:

- يبدو أن قيس جاء ليعزيك.

تمنيت ألا أراه في تلك اللحظة. ربما لم أكن أريده أن يراني شبه منهارة.

اتصلت رقية بي عبر جوّالي وقدّمت عزاءها الحار. ثم ما لبثت أن اقترحت أن أسافر للعمل في كندا، وأنها تستطيع أن تؤمن عقود عمل في عدة مدارس ومعاهد، وتكسب أختاً لم يشأ القدر أن يمنحها تلك النعمة التي تتمناها الابنة الوحيدة في أية عائلة على وجه الأرض.

عند العاشرة صباحاً اتصل يوسف وسأل عن الدكتور علي. سمعته يقول:

- وين غايب كل هالمدة يارجل؟ تفضل. نحن في انتظارك.

فكرت بكلمات رقية، ولكني لم أجد رغبة في السفر. كان وجه أمي يرتسم أمامي أنّى نظرتُ فتنهمر دموعي. وصرتُ أتخيلها تمشي في دروب القرية وتطلب من الله أن يوفقنا.

جاء يوسف والتقى أهل قريتي هناك كل يغص بذكريات الماضي ويستحضره. قال يوسف الغربة والعمل يجعلان منك آلة عمل متواصل فيضيع منك الزمن على غفلة.

- وأنت ديلارا هل فكرت بنفسك؟ بتكوين عائلة؟

قلت:

- أبداً لم أفكر بعد. هذا موضوع يحتاج إلى وقت للتفكير.

قال يوسف إنه سيغادر غداً إلى بيروت. وسيأتي لزيارتنا أيام إجازاته.

لم تكن عاتكة تتركني وحيدة طوال تلك الفترة العصيبة.

كانت تكلّفني بترجمة بعض النصوص الفرنسية. وصرت أرافقها إلى مكتبها، وأساعدها في الترجمة والتنسيق الورقي لترجماتها.

كانت الموسيقى تدعوني للسفر في رحابها المفعم بالأحلام. لم أستطع تخيل العالم دون موسيقى فقد باتت زادي الذي ترتعش روحي شوقاً إلى سماعها وتأليف رقصات على أنغامها. استمر تواصلي مع الفتيات اللواتي استطعن فهم الموسيقى وأتقن تشرّبها قبل البدء بأية خطوة، وشكلت معهن نسيجاً متماسكاً شغله عشق المسرح و الفنون الجميلة. وشكلنا فرقة أطلقت عليها الفتيات اسم "فرقة ديلارا للرقص الراقي" وصارت فرقتنا تجوب كل أنحاء العالم.

في نيسان من عام 2007 كانت فرقتنا تقوم بعروضها الأولى على مسارح مدينة مونتريال. من خلف الستارة علمت أن الصالة مليئة بالحضور لكني تعودت كما تعودت الفتيات أن نركز حواسنا لإصغاء مرهف إلى الموسيقى لأجل دقة الأداء وانسجامه مع المعزوفة كل واحدة منا كانت ترقص لموعد رسمه خيالها فيبدو الرقص توأم الموسيقى مبدعاً إبداع المعزوفة.

حين دوى تصفيق الصالة فتشت عن رقية. كانت تجلس في الصف الأول مع زوجها وصديقاتها وكان قيس والشاعر مصطفى غريب يهمان بالخروج. أزحت الستارة وقلبي يخفق وأسرعت إلى قيس أمسكت بيديه وهمست:

- قيس لأجلك أرسم موعداً مع المسرح لأجلك ابتعدت عنك، أتفهمني قيس؟

قام جلال القادري بدعوة فرقتنا إلى أحد المطاعم في ضواحي المدينة. تبادلنا الأحاديث الشيقة وأخذنا صوراً تذكارية، وأمضينا نهاراً حافلاً بالإثارة. عدنا مساء إلى الفندق حيث تقيم فرقتنا. جلست في منتصف الليل يرتسم في مخيلتي دارنا وأرضنا حيث ولد الجمال وترعرع في قلبي. حيث ولدت الموسيقى الساحرة التي صنعت حلماً تراقص طيفه وطار بي إلى كل مكان في أصقاع الأرض. تذكرت ذلك الصباح الصيفي الماطر وأوراق التوت والعنب والرمان المسافرة مع الريح.

تذكرت أمي بوجهها المنير وقامتها الفارعة، وهي تناديني:

- خذي الخراف واتركي المرآة التي تظل بين يديك ليل نهار..

مرت الأيام كومض خاطف. وفرقتنا تنتقل من تحضير إلى آخر يغمرها عشق المسرح بموسيقاه وجمهوره.

ثم نعود في آخر المطاف إلى دمشق.

14

في ربيع عام 2008 أخبرتني عاتكة أنهم سيعودون للإقامة في القرية بشكل دائم. قالت إنها رغبة خالك بعد أن أنهى سنوات خدمته في التعليم وأُحيل إلى التقاعد. وطلبت مني العودة للسكن معهم في القرية.

قلت:

- سأقوم بزيارتكم كلما وجدت الفرصة مناسبة.

التقيت بيوسف في منزل خالي قبل عودته إلى القرية وصرنا نتذكر الأماكن ونلعب لعبة اختبار للذاكرة. كانت أسماء الحقول والأشجار والنباتات التي نبتت في زمن طفولتنا راسخة في أذهاننا.

قال يوسف:

- كلما فكرت في العودة إلى القرية أتذكر قسوة أبي وجبروته. أتذكر الناي التي كسرها، وليالي الشتاء الباردة التي أمضيتها خارج البيت فتقف الذكريات حاجزاً في وجه رغبتي في العودة.

قلت:

- وأنا أتذكر صفعة أختي وشتائمها الجارحة، لكن لا مشكلة لدي لأن عاتكة كانت تطلب مني تكرار التحدث عن ذكرياتي المؤلمة كي أتخلص من وطأتها.

أحسست بنظرات يوسف تغمرني بالحب.

- ولكن ألم تغذِّ موهبتَك طبيعةُ قريتنا الجميلة والنبع ولون السنديان وحفيف أوراق الحور، حيث كنت تجلس وتعزف أعذب النغمات؟

- بكل تأكيد، لقد ألهمتني مقطوعات موسيقية كثيرة، أهمّها لحن أطلقت عليه اسم "نشوة الحنين".

خرجت إلى الشرفة فتبعني وقال:

- أنت نقية كقطرات الندى. ناعمة كنسائم الصيف. ديلارا. أنا لم أفكر بالزواج طيلة فترة سفري. كنت مهتمّاً بعملي وتأليف الموسيقى وتعليمها للطلاب الموهوبين. والآن لن تتصوّري مقدار سعادتي وأنا ألتقي بك من جديد.

في المساء أخبرت عاتكة أن يوسف طلبني للزواج، فقالت:

- كنت أتوقع ذلك. يوسف شخص رائع والحمد لله أنك لن تبقي وحيدة بعد سفرنا إلى القرية.

قلت:

- من قال لك أني سأبقى وحيدة؟ والفرقة التي تعمل كخلية النحل، والكتب، والنباتات، والزهور التي تنتظرني في شرفة منزلي والموسيقى السابحة في كياني. أنت عاتكة تزوجت وأنجبت. ولكن أين ولداك؟ كم طلبت من طارق أن يعود من ألمانيا مع زوجته الألمانية وابنه؟ وفي كل مرة تتلقين الوعد تلو الآخر ولا ينفذ وعده. حتى جاد سيظل في دمشق مشغولاً في مرسمه ومعارضه ... أشياء كثيرة تجعلني أفكر ألف مرة قبل موافقتي على طلب الزواج. غريب، لماذا يحصل ذلك؟ ألهذه الدرجة ننسى أنفسنا ونفقد الحنين حين نسافر خارج موطننا؟ سأزورك. سألحق بك بعد فترة قصيرة لن أدعك أنت وخالي تنفردان كعاشقين.

ضحكت عاتكة وقالت:

- هذا أملي. وكلما رأيتِ جاد أثيري حنانه وحبه للقرية.

- سأفعل حين يقصّ شعره الطويل.

في شهر أيار سافرت فرقتنا إلى بلغاريا. وقد شارك يوسف بتقديم موسيقاه وعلى أنغامها قدمت رقصات من نوع جديد حرّكت مشاعر أهل الصحافة فكتبوا عن الفنون التراثية وسحر الرقص الشرقي وعذوبة الموسيقى.

لم أستطع أن أتخلّى عن المسرح. كنت أدرّب الفتيات وأغرس في أذهانهن حب الموسيقى الكلاسيكية المفعمة بالروحانيات.

في أواخر حزيران سافرت إلى القرية لزيارة خالي وعاتكة. لم يعرفني أحد من أهل القرية فقد وضعت نظّارة سوداء كبيرة حجبت نصف وجهي. مشيت في الطريق المؤدي إلى منزل خالي أتذكر خديعتي لأمي و لقائي الأول بقيس عبد الجليل، أيام الأحلام المجنونة وفورة الشباب المبكر. التفتُّ إلى منزل والدي إلى مسقط رأسي وملعب الطفولة. لم أستطع متابعة سيري فجلست أرقب الحقول وأستعيد كل الأحداث والذكريات. تمنيت أن أطيل فترة بقائي وحيدة في ذلك الطريق المطل على ذكرياتي. تمنيت أن أمرّغ يدي بالتراب والأعشاب وأفرك العشب بيدي وأقطعه فيطلق عبق الطبيعة الذي افتقدته زمناً طويلاً. تمنيت أن أبقى حتى المغيب أسترجع تفاصيل الأحداث وأسرارها. اتصلت بيوسف وأخبرته أني أجلس وحيدة في مكان يطل على سنديانته وموسيقاه البكر. حدثته عن مشاعري و بكيت، فقال:

- لا بأس يا ديلارا، علينا أن نزور القرية مراراً ولو اجتاحنا الحزن والأسى، فالدموع تغسل الروح.

طلبت من يوسف أن يأتي إلى القرية، فسارع إلى القول وكأنه يهتبل فرصةً لطالما انتظرها:

- سأزورها حين أحظى بحبك.

وعدته أن نلتقي بعد أسبوع. وأخرجت مرآة من حقيبتي وعلبة مياه معدنية غسلت وجهي وجففت دموعي وكحلت عينيَّ قبل أن أصل إلى عاتكة التي أطلت من الشرفة مشرقة الوجه. أسرعت وضمتني إليها وقالت:

- رأيتك منذ نزلت من السيارة وعلمت أنك تسترجعين ذكرياتك فتركتك تستحمّين بها. لكنكِ أطلتِ الاستحمام. أو ربما دقائق الانتظار تبدو ساعات.

سألتها عن خالي فقالت "اذهبي إليه". وأشارت إلى الوجهة الشرقية لبستانهم. إنه يعتني بالمزروعات والغراس.
كان يرتدي بدلة عمل رمادية و قد شمّر عن ساعديه، و بيده معول يحفر حول الغراس. ثم يضع المعول لينقل خرطوم الماء إلى مجرى آخر لشتول الباذنجان والملفوف والخيار وكثير من أنواع الخضار. كان يحدّث الغراس قائلاً:

- أنت يا مسكينة لم تشربي اليوم... وأنت ماذا أصاب أوراقك حتى تحول لونها إلى أصفر؟...

قاطعتُه قائلة:

- السلام على المزارع النشيط.

التفت إلي وقال:

- آه ديلارا، أهلاً وسهلاً بكِ في مملكتي الأخيرة. تعالي وشاهدي هذه الأرض المعطاءة !!

قلت:

- ما شاء الله ! عالم جميل حقاً!

أمسك مقصاً خاصاً بالمزروعات، وراح يجز البقدونس والنعناع والبصل. واتجه إلى خطوط غرست فيها البندورة والخيار فقطف منها ما تم نضجه، وقال:

- ستأكلين اليوم تبولة شهية.

سألتُه:

- ألا تشعر بالوحدة يا خالي؟

قال:

- مازلت أتابع آخر ما يصدر من كتب، وأمضي وقتاً لا بأس به في القراءة. وكما ترين

الزراعة ممتعة ومسلية.

- وأصدقاؤك ألم يبقَ لهم مكان في حياتك؟

نظر حينها إلى الشجرة المصفرة وقد رمت بأوراقها فوق التراب. ظننت أنه سيقول: "إنهم يتساقطون كأوراق الشجر". لكنه صمت قليلاً ومسح وجهه وجلس في ظل شجرة ليمون وقال:

- للصداقة أوان وعمر محددان، تزدهر خلالهما وتكون في غاية الحيوية، ثم تبدأ بالانحدار، ليس لعدم الإيمان بالصداقة، بل لأننا نميل إلى الهدوء وحب القراءة، ولأن علاقتنا بالأسرة وبالأرض تتوطّد أكثر.

في اليوم التالي ذكرت عاتكة قيساً وقالت:

- لا ندري ما أخبار المسرح.

فقال:

- خالي يجب أن أتصل لأطمئن عنه.

أحببت أن أراه. لا أدري لماذا ولا بأية صفة. كنت أحبه وأحب الابتعاد عنه في آن واحد. أتمنى أن ألتقي به وأهرب منه.

ما أزال أفتش عن مناسبة يذكر فيها اسم قيس لأفكّر به، وأعيش تلك المشاعر المجنونة والرغبة الدفينة في لقائه، وحين يتحقق حلمي أتوارى كغيمة واعدة بالمطر سرعان ما تسافر لتصب قطراتها في مكان آخر.

لستُ أدري لماذا "أفقد" عشّاقي، بالأحرى عشّاق جسدي: قيس ويوسف وخوسيه الإسباني وماسيمو الإيطالي وآخرون ... أيّها الجسد بتّ أكرهك!....

كان ليلي الفائت طويلاً وبارداً ومخيفاً، فنافذتي مفتوحة لهول العاصفة، وأبطالي الذين صنعتُهم ورسمتُ ما أتمنّاه في حناياهم، خدعوني...رسمتُهم عشّاق موسيقا، فوجدتُهم غارقين في اشتهاء جسدي ...

غابت كل الصفات التي تمنّيتُها عن عالمهم الذي لا يسمع الموسيقا، فقد عَلَتْ أصوات الشهوة، وأخرست عذب الأصوات وشدوَها.

كنتُ أحترق وأنا أحاول تغيير معالم بطلي، لكنّه راح يتلذّذ في قتلي ودفني...

لكني لن أموت كما يريد ويشتهي. سأظلّ أبحث عن عالم وردي يرسمه الحلم موعداً. سأظلّ أرسم الحبّ الصادق، وأقفز من قسوة الواقع إلى الحلم حيث النسائم الناعمة، وحيث الحب.

"هل أنتِ رومانسية؟" سألني يوماً قيس، وحين أجبتُه بالإيجاب، قال: "مسكينة! ستتعبين كثيراً".

هذا ما كتبته ديلارا حتى الآن، وقررت أن أنشره في كتاب بعنوان ديلارا .... ما نزال على موعد.

ولكن بدا لي من خلال حديثي إليها ونظرة الحزن الغامضة في عينيها أنها كانت تغربل ذاكرتها لتصطفي من العمر حلو أيامه ومن أصدقائها أقربهم إلى قلبها ومن عائلتها أكثرهم حناناً والدتها التي كان خبر وفاتها الحدث الوحيد الموجع الذي عصف بقلبها وهي بعيدة عن حضن العائلة سنين طويلة. وحين سألتها عن سبب إخفاء الذكريات المؤلمة. قالت:

- أحب أن أتحدث عن الفرح لأعيشه مرتين.

8

"ديلارا، نور شمسي، وسارقة قلبي. فإن أردتَ معرفة تلك الشابة حق المعرفة، عليك أن تدرك جيداً أن الجمر الذي يُغريك دفءُ وهجِهِ أيامَ البرد القارس، هو الجمر نفسُه الذي يكويك بسعيره إذا ما غامَرَتْ يداك وعبثت في أحشائه."

هذا ما دوّنه قيس عبد الجليل على قصاصة ورقٍ نسي أن يخرجها من كتابٍ كان قد أعارني إياه لأقرأه. وعلمت فيما بعد أن ما كتبه على تلك الورقة كان رداً على سؤال صديقه الشاعر مصطفى غريب عن نجمة مسرحه ديلارا. إجابة لم يجد الجرأة للكشف عنها في مقابلةٍ على إحدى الفضائيات، حين استُضيف ساعةً كاملة للحديث عن مسرحياته، فعَهَد بها إلى الورق، كعادته منذ كنا في المدرسة. فقد اعتاد أن يهرب إلى تدوين ما يرهقه.

وعلى صفحةٍ أخرى من صفحات الكتاب نفسه، كتب اسمها بأحرف متقطّعة وبشكل عمودي: "د ي لا ر ا، يا حبي الأبدي. يا نور العيون".

وأضاف على آخر صفحة: "حبيبتي، لقد أخطأتُ قراءتك. أنت يا روح الموسيقى ونشوة الإبداع! سامحيني، أرجوك! ما أروع نبلك! وما أرقَّ مشاعرك!

كنتِ تبحثين عن ممر إلى قلبي. وكنتُ مجنوناً بجسدك، أستحضره، أتتبع تفاصيله، وأبحث عن سر الشهد الساكن في خلاياه، وأذوب متعة ونشوة".

وصلت مع محمد ولميس بعد الظهر، وقد أتعبتني ساعات السفر الطويل. أول ما قمتُ به في المطار هو أني ملأت رئتيّ مرات عديدة بالهواء الدمشقي.

أجريت اتصالاً وحيداً برفيق الطفولة والصبا قيس، ووعدته بزيارة صباحية في مكتبه. وأمضيت المساء أتسامر مع أمي وأخي، وأعرّف ولديّ إلى جدّهما وجدّتهما، وخالهما. فهذه أول مرة يريان فيها أهلي، على الرغم من أن محمد صار في الثانية عشرة من عمره، وأخته في العاشرة.

لم يشعرا بأية غربة لأني علّمتهما اللغة العربية فأتقناها بالإضافة إلى اللغتين الفرنسية والإنكليزية، كما أنهما ألفا الحديث مع جدّهما وجدّتهما وخالهما عبر الهاتف، إذا كانا يتحدّثان معهم كلما كنتُ أطلبهم من مونتريال.

حدثت أهلي عن حياتي في كندا بالتفصيل الممل، وما كنتُ أنساه كانت لميس تذكّرني به. تركت لأمي مساحة من الوقت، فأخبرتني خلالها عن أقاربنا وصديقاتها. وعلى الرغم من أن هذه الأخبار كانت تصلني عبر هواتفها أولاً بأول، لكنها لم تجد بداً من سرد التفاصيل التي اتّخذت طابعاً أكثر خصوصية وجاذبية حين أُتيحت فرصةُ الحديث وجهاً لوجه.

في الصباح تركت أمي تفتح حقيبة الهدايا، وتتسلى بتوزيعها في أكياسٍ تكتب عليها أسماء

قريباتها وصديقاتها لتسلّمها لاحقاً، وتفتخر بثراء ابنتها ورفاهية حياتها. وتوجّهتُ لزيارة قيس. ولأطلّ على وجه دمشق الساحر، قدتُ سيارة أخي، ورحت أطوف في شوارعها وأزقّتها، حيث تستوقفني الأماكن وتنبجس الذكريات بحريةٍ حتى كادت أن تنسيني موعدي.

وصلت مثقلةً بالحنين إلى المبنى الذي يشغل قيس مكتباً في طبقته الخامسة. نظر إلى ساعته وقال وهو يدور من خلف مكتبه ليستقبلني معانقاً:

- يبدو أنكِ غيرتِ عادتكِ وصرتِ تصحين في وقت متأخّر!

قلت وأنا أمسح بمنديلٍ ورقي أحمرَ الشفاه عن وجنتيه بعد أن طبعتُ عليهما القبلةَ الخامسة أو السادسة:

- لقد زرتُ أماكن الصبا قبل أن أصل إليك: بائع القهوة والسوق القديم والمقاهي والمكتبات والمركز الثقافي والمسرح القومي وغيرها.

إلى جانب قيس كان يجلس صديقه الشاعر مصطفى غريب الذي شهد عناقي لقيس فعرف طبيعة علاقتنا الطيبة.

قرأت حزناً وقلقاً في عينيه لم أعرفهما عندما زارنا آخر مرة في مونتريال منذ نحو أربع سنوات. وعكَسَ شعرُ ذقنه المهمل حالةَ التوتر التي بدت أيضاً في حركة أصابعه وطريقته في تدخين السجائر. ذكّرني احمرار عينيه بحالة الحزن التي كانت تنتابه حين كان يتذكر يتمه المبكر. بيد أنه ظل محافظاً على جاذبية المفكر وعمق نظراته التي مافتئت تمنحني إحساساً متميزاً وتأخذني إلى حالة الفرح العارم التي كانت ومازالت تنتابني حين أراه وأدرك علاقته بالإبداع والفكر النيّر والانفتاح على حضارات الشعوب وثقافاتها. وكل ذلك بدا جلياً في أعماله منذ أن بدأ الكتابة.

سأله غريب عن سبب غياب ديلارا عن مسرحه، فأجاب مخاتلاً:

- لا أدري بالضبط ما سبب انفصالها عن فرقتنا. أعتقد أنها كانت تريد أن تكوّن فرقةً للرقص خاصةً بها، وهذا ما فعلته، فهي من النوع الذي يفضّل الاستقلالية.

فقال غريب بشيء من الأسى على مسرحٍ فَقَد ملكته:

- ثمة طيور تحبّ أن تغرّد خارج السرب. ولا يدري حتى العارفون وذوو الخبرة ما السبب الكامن وراء ذلك الهروب المفاجئ، والمغرق في الغرابة .... لا بدّ أن هناك سبباً وجيهاً... أو ربما تعود هذه الظاهرة لحساسيةٍ ما في تركيبة تلك الفتاة.

بدا الشاعر مصطفى غريب متأثراً هو الآخر. فقد حضر العديد من المسرحيات وأُعجب بمسرحٍ رَبَطَ بين إبداع قيس وفن أفراد فرقته وأهمهم ديلارا التي حققت شهرة واسعة وتألقاً لا مثيل له في فترة وجيزة. كان ينظر إلى قيس الذي كان يحرك نظاراته بعصبيةٍ ثم يضع أصابعه على خده مسنداً ذقنه بالإبهام وتاركاً السبابة تفرك وجهه بشيء من القلق، ثم ينفض رماد سيجارته بيده

النحيلة فتفرّ نثراتُ منه خارج المنفضة المليئة بأعقاب السجائر.

وحين أدرك غريب مشاعر الخيبة التي حاول قيس إخفاءها قرر أن يعلمه بمعرفته لحقيقة مشاعره حيال ديلارا فقال مواسياً:

- جميلة هي المشاعر التي تقع في برزخٍ بين الأخوّة والحب والتي تسمى الصداقة. إنها تبقيك بعيداً عن فوهة البركان فلا تتلظّى بحممه.

ابتسم قيس، على الرغم من ثقتي بأنه لا يشاطره الرأي فهو عكس ذلك تماماً. إنه يؤمن بالحب حتى ولو أحدث ألف علّة في الجسم، وأدّى إلى نهاية مأساوية. لم تكن مشاعر قيس حيال تلك الصبية حديثة، فقد حدّثني عنها مراراً عبر الهاتف، وحين زارنا في كندا، واستفاض في وصف موهبتها الفريدة حين كان يقوم بالتحضيرات لمسرحيته "مفاتيح العودة" والتي قرر عرضها آنذاك في ذكرى يوم الأرض على خشبة المسرح القومي في مدينة دمشق .

لمحتُ بريقاً في عيني قيس وهو يخاطبني بصوتٍ أرعشه التأثّر:

- رقيه، هل تذكرين حكايات جدتك عن فلسطين، وتقاليد الأعياد والأعراس والأغاني التراثية والرقص والدبكة على اختلاف خطواتها؟ أستطيع أن أجزم بأن ديلارا سيدة كل تلك الفنون وهي تقدمها لوحاتٍ رائعة. لقد فتحت أمامي صفحات سحرية، وشدّتني لقراءتها بتمعن حتى تُهتُ في ثنايا موهبتها ..... وتأجج في كياني ذاك العشق السرمدي لوطن رسمت موعداً للقائه.

صمت قليلاً ليشعل سيجارة ثالثة خلال أقلّ من نصف ساعة.

كنتُ أراقب نظراته الكسيرة، وأنا أتساءل لماذا يعيد على مسامعي هذا الكلام الذي قاله لي غير مرة، والذي عايشتُه عن كثب.

أضاف باندفاع:

- وأقف مذهولا أمام أدائها فتلغي من ذهني مسألة مرور حقبة من الزمن، فأتخيل أنها ابنة تلك الفترة، وأنها عايشت المجتمع الفلسطيني وعرفت خباياه فخبرت ثقافته وفكره وتقاليده. تراث... لطالما جهدت لاستحضاره وتجسيده مسرحياً.

تفّهمتُ إصراره وعمق رغبته في وصف بطلة مسرحه المغادرة، مما استرعى انتباهي وصمتي في انتظار المزيد من استرساله وبوحه بتلقائيةٍ لم تكن في الماضي سمة من سماته.

ما لبث بعد ذلك أن أحسّ أن لصمتي آذاناً تسترق أسراره وتسمع دقات قلبه، فقال بأسى:

- بتّ أكره أفلاطون لأنه فصل بين الروح والجسد. إن المؤمنين بفلسفته يدمّرون أنفسهم، ويدمّرون معهم من يحبّون. هم لا يُدركون أن الجسد بوّابة الروح؛ إن شاء خنقها، وإن شاء

أحياها...

كأنه شعر، بذكائه الحاد، بطيف غَيرةٍ فغيَّر مسار حديثه قائلاً:

- افتقدك رقية. افتقدتُ القارئةَ والناقدة الأولى لمسرحي، كتابة وأداءً. أتذكرين هواتفنا الليلية المستعجلة لإطلاعك على آخر ما كتبت، أو ليخبر أحدنا الآخر أن أغنية لأم كلثوم التي كانت تبث عبر إحدى المحطات الإذاعية، فنسمعها بشغف؟ أتذكرين؟ ...

لم أردّ عليه لأني كنتُ مشغولةً باستقبال صورة ديلارا التي حضرت بقوة في هذه اللحظة. كان آخر لقاء لنا في مونتريال حين زارتني من إسبانيا منذ نحو شهر لتُمضي أسبوع استراحةٍ في ضيافتي. في ذلك اليوم غبطتُها على تنقّلها بين البلدان، وهنّأتُها على نجاحاتها المطّردة إذ كانت أخبار نجاح فرقتها الخاصّة تُنشر في الصحف والمجلات الفنية وغير الفنية ومواقع الإنترنت أيضاً. قالت لي إنها أتت خصيّصاً لتسلّمني مذكّراتها التي وعدتني بها. تذكّرتُ كيف ناولتني مغلّفاً يحوي أوراقاً منفصلة، وهي تقول:

- هذه مذكّراتي التي وعدتُك بها.

تفحّصتُ الأوراق جيداً، ثم قلت لها:

- أشكركِ كل الشكر على ثقتك بي.

- ألا يكفي أن محبوباً واحداً يجمعنا؟

قلتُ لقيس وأنا أخرج المغلّف من حقيبتي:

- لقد انتهيتُ منذ يومين من قراءة مذكّرات ديلارا...

- وأين هي الآن؟

- من؟ ديلارا أم المذكّرات؟

- المذكّرات. هل كتبت عنّي؟ أريد أن اقرأها، أرجوكِ.

أخرجتُ المغلّف من حقيبتي، وناولتُه إياه ببطءٍ متعمّد فتلقّفه من يدي، وسارع إلى فتحه بحنانٍ بادٍ ، حمل الأوراق المبعثرة قليلاً، وأخذ يرتّبها وينسّقها برفقٍ يناقض عصبيته التي بدأ بها اللقاء.

رأيتُ أن أغادر فوراً، متمنيةً له التوفيق، ووعدته أن أعمل جهدي لحضور مسرحيته القادمة خلال إقامتي القصيرة في دمشق.

ودّعني بكلمات مفعمة بالفرح والشوق لرؤيتي، ليغيب بعدها صوته العذب الدافئ مخلِّفاً في نفسي

مشاعر أنا عاجزة عن تسميتها.

عند باب المصعد وقفت، نظرتُ إلى مكتب قيس فرأيته غارقاً في القراءة، تُرى هل أراه ثانيةً؟ أم أن وداعي الحميم له منذ لحظة هو الأخير؟ ربما، وإلا لماذا فاضت دموعي وخرجتُ راكضةً؟

ضغطتُ زر استدعاء المصعد، فبرزت إليّ صورة ديلارا حين ودّعتُها آخر مرة، بعد أن سلّمتني الجزء الأخير من مذكّراتها، فضممتُها بقوةٍ إلى صدري، وإذ بدموعي تبلّل عنقها، فقد تخيّلتُ للحظةٍ قيساً بين ذراعيّ....والغريب أن عنقي هو الآخر تبلّل... ولستُ أدري ماذا أو مَن تخيّلَتْ.

النهاية